* تائية الإلبيري دراسة بلاغية *

د/ زينب كمال سليم محمد
مدرس البلاغة والنقد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية
بنات بني سويف

تائية الإلبيري دراسة بلاغية

د/ زينب كمال سليم محمد
مدرس البلاغة والنقد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية
بنات بني سويف

المقدمة

بسم الله جلَّ علاه ، والصلاة على مصطفاه محمد بن عبد الله وعلى آله وأصحابه أجمعين ، وبعد .
يتناول بحثي بلاغة قصيدة الإلبيري (التائية) ، وهي عين من عيون الشعر العربي في النصح والإرشاد ، أبحر فيها مع بلاغة الشاعر .
هذا وتقع القصيدة ضمن ديوان الشاعر المحقق ، حققه الدكتور محمد رضوان الداية ، وشرحها الدكتور أمير شيشي تحت عنوان / فتح الرزاق بشرح تائية أبي إسحاق .
ونظرا لما تتمتع به الدراسة البلاغية من أهمية ؛ حيث تغوص في أعماق الشعر فتخرج درره المكنونة ، ونظرا للحظ القليل الذي حظى به الشاعر من الاهتمام ودراسة شعره رغم كونه من الشعراء المجيدين في القول ، ونظرا لما لفت انتباهي من كم النصائح الهائل والتوجيه والإرشاد الذي احتوت عليه القصيدة ، لأجل تلك الأسباب وقع اختياري على القصيدة لدراستها بلاغيا.
وقد تهيأ للبحث في ذلك خطة مكونة من عدة مباحث على النحو التالي :

أولا : المقدمة
تحدثت فيها باختصار عن الموضوع - سبب اختياري له ، والخطة الموضوعة لدراسته.
ثانيا : التمهيد : ذكرت فيه نبذة عن الشاعر والبيئة التي كان يعيش فيها .
ثالثا : المباحث ، وجاءت معنونة على النحو التالي :

- **المبحث الأول:** هيمنة الفعل المضارع مرتبطا بالصورة البيانية أحيانا كوسيلة لإحياء الأحداث وتجددها ، وبيان أثر ذلك في دلالات التراكيب – الأبيات (١:١٧).
- **المبحث الثاني:** تنوع الأساليب بين الخبرية والإنشائية مدعمة بالطباق والمقابلة كسبيل للمقارنة بين معنيين – الأبيات (١٨- ٣٢).
- **المبحث الثالث:** الإكثار من الجمل الخبرية مع إضاءة المعنى بالصورة البيانية – الأبيات (٣٣: ٥٠).
- **المبحث الرابع:** الأمر والنهي وأثرهما في إضاءة المعنى - الأبيات (٥١: ٦١).
- **المبحث الخامس:** المضارع المنفي بـ(لم) ، ودوره في الموازنة بين حال الشاعر وحال المخاطب - الأبيات (٦٢: ٧٢).
- **المبحث السادس:** تقييد الفعل الماضي بـ(لو) مع تدعيم المعنى بالطباق ، وبيان أثر ذلك في دلالات التراكيب - الأبيات (٧٣: ٨٦).
- **المبحث السابع:** نداء المخاطب ومواجهته بخطاب تتفاوت فيه الجمل بين الخبرية والإنشائية - الأبيات (٨٧: ٩٩).
- **المبحث الثامن:** التوجيه المباشر للخطاب ودوره في ختام القصيدة - الأبيات (١٠٠: ١١٢).
- **المبحث التاسع:** نظرة حول القصيدة .

- رابعا : الخاتمة ، وقد أثبت فيها أهم نتائج الدراسة ، وقائمة بالمصادر والمراجع .

هذا وأسأل الله أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، وأن يكتب لي به القبول إنه ولي ذلك والقادر عليه ، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

****

* التمهيد*

التعريف بالشاعرأبي إسحاق الإلبيري :

"إبراهيم بن مسعود بن سعيد التجيبي الإلبيري من أصحاب أبي عبد الله بن زمنين- رحمه الله- وروى عنه كتبه ، وكان فقيها مُعظَّمًا في وقته ، وعليه تفقه عبد الواحد بن عيسى الهمداني فقيه غرناطة[1] "

(لم تحدد كتب التراجم تاريخ دقيق لولادته ، ولكن أغلب الظن ما افترضه صاحب موسوعة شعراء الأندلس أنه ولد في أوائل الربع الأخير من القرن الرابع الهجري ، وتوفي سنة ٤٥٩ هـ[2]).

ويرجع نسبه إلى (تجيب) وهي إحدى قرى اليمن [3] ، وأصله من أهل حصن العقاب ، ولد ونشأ بها ثم انتقل إلى إلبيرة ، وفيها تلقى العلوم الشرعية ، واشتهر بالفقه والقراءات القرآنية[4] ،وأغلب الظن أن أبا إسحاق ترك إلبيرة إلى غرناطة بعد أن تهدمت إلبيرة وأصابها الخراب .

وكان أبو إسحاق عالما زاهدا ، ومحدثا فقيها ، كان من أهل العلم والعمل قال عنه الضبي :" فقيه قاض زاهد عارف ، كثير الشعر في ذم الدنيا ، مجيد في ذلك "[5]، "عمل كاتبا ومساعدا للقاضي ابن توبة في غرناطة حتى كثر أصحابه وتلاميذه والمستمعون إليه ، وكان يتحدث معهم عن المظالم وعن طغيان اليهود في كل ناحية ، واختلف مع ملك غرناطة (باديس بن حبوس) البربري ؛ لاتخاذه وزيرا من اليهود اسمه (إسماعيل بن النغريلة) ؛ حيث كان ظالما طاغيا ، استطال وعملائه على المسلمين واستهزأ بهم ، وبلغ من كيده أن قام بتحريض الملك (باديس) على نفي (أبي إسحاق الشاعر) خارج غرناطة ، فاستقر الشاعر الزاهد في ضواحي مدينة (إلبيرة) الخربة في زاوية رابطة العقاب على إحدى التلال ؛ حيث عاش عيشة المتصوف الزاهد ، وكان ذلك بعد وفاة القاضي (ابن توبة) الذي كان مصدر حماية للشاعر ولغيره من الفقهاء آنذاك ، وظل الشاعر بمنفاه إلى أن مات الوزير (إسماعيل بن النغريلة) ، فاستوزر ملك غرناطة ابنه (يوسف بن النغريلة) ، فطغا طغيانا كبيرا أكثر من والده ؛ وعزل الملك عن الشعب وصارت له السلطة المطلقة ، وتطاول على الإسلام والقرآن ، وزعم أنه من صنع محمد (صلى الله عليه وسلم) ، فتصدى له ابن حزم وبين فساده ، وهنا يأتي دور الشاعر ؛ حيث كتب قصيدة يحرك فيها الشعب الغرناطي الملتهب على الثورة ضد الوزير الفاسد ،ومطلعها:

ألا قل لصنهاجةٍ أجمعين ... بُدور الزمان وأسد العرين
لقد زلَّ سيدكم زلـــــة ... تقر بها أعين الشامتـــين
تخير كاتـــــبه كافرًا ... ولو شاء كان من المسلمين

وذاعت القصيدة بسرعة البرق ، وانتشرت انتشار النار في الهشيم ، وألهبت مشاعر الشعب الغرناطي حتى انتفض بثورة عارمة في الخامس عشر من رجب سنة ٤٥٩ هـ في انتفاضة شعبية على الوزير اليهودي ، فقتله العامة واجتاحت النيران غرناطة ثلاثة أيام ، وقُتل من اليهود يومئذ مقتلة عظيمة بلغت أكثر من أربعة آلاف يهودي ، وعظم قدر (أبي إسحاق الشاعر) بعد هذه الثورة ، وقد توفي- رحمه الله- بعدها بقليل في العام نفسه"[6] .

وهكذا كان (أبو إسحاق الإلبيري) فقيها صادقا وعالما جليلا ، ومصلحا من شئون مجتمعه ،داعيا إلى الخير، دعا الناس إلى النظر في ذاتهم ونقدها ، والتقرب إلى الله بالزهد في متع الدنيا وملاذها الزائلة - عليه رحمة الله ورضوانه - .

---

[1] ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة مذهب الإمام مالك للقاضي عياض – ضبطه / محمد سالم هاشم ٣٣٦/٢ ط١ دار الكتب العلمية-بيروت ١٤١٨هـ ١٩٩٨م

[2] موسوعة شعراء الأندلس / عبد الحكيم الوائلي ص٢١ ط١ دار أسامة للنشر والتوزيع – عمان د.ت

[3] ينظر : جمهرة أنساب العرب لابن حزم الأندلسي – تحقيق/ عبد السلام هارون ص٤٣١ ط١ دار المعارف بمصر ١٣٨٢هـ ١٩٦٢م

[4] مقدمة ديوان أبي إسحاق الألبيري / محمد رضوان الداية ص٧ ط١ دار الفكر المعاصر بيروت ١٤١١هـ ١٩٩١م

[5] بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس للضبي – تحقيق إبراهيم الإبياري ص٢١٠ ط١ دار الكتاب المصري ١٤١٠هـ ١٩٨٩م

[6] منقول بتصرف واختصار من : المغرب في حلى المغرب لابن سعيد المغربي – تحقيق/ د. شوقي ضيف ١١٤/٢ ط٤ دار المعارف ١٩٥٥م وينظر : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذارى المراكشي ٢٦٦/٣ط٣ دار الثقافة بيروت ١٩٨٣م

وينظر: فتح الرزاق بشرح تائية أبي إسحاق –شرح د/ أمير شيشي ص٨-٩ ط١ بمدينة بربينيان الفرنسية ١٤٣٤هـ ٢٠١٣م

* تائية الإلبيري *

١. تَفَـــتّ فَـــؤَادَكَ الأيَّـــامُ فَتّـــا وَتَنْحِـــتُ جِسْـــمَكَ السَّـــاعَاتُ نَحْتَـــا[1]

٢. وَتَـــدْعُوكَ المُنَـــونُ دُعَـــاءَ صِـــدْقٍ ألاَ يَـــا صَـــاحِ: أنْـــتَ أرِيـــدُ أنْتَـــا

٣. أرَاكَ تُحِـــبُّ عِرْســـاَ ذَاتَ غـــدْرٍ أبَـــتّ طَلاَقَهَـــا الأكْيَـــاسُ بَتّـــا

٤. تَنـــامُ الـــدَّهْرَ وَيْحَـــكَ فِـــي غَطِـــيطٍ بِهَـــا حَتّـــى إذَا مِـــتّ انْتَبَهْتَـــا

٥. فَكَـــمْ ذَا أنْـــتَ مَخْـــدُوعٌ وَحَتّـــى مَتَـــى لاَ تَرْعَـــوِي عَنْهَـــا وَحَتّـــى ؟

٦. " أبَـــا بَكْـــرٍ" دَعَوْتُـــكَ لَـــوْ أجَبْتَـــا إلَـــى مَـــا فِيـــهِ حَظّـــكَ إنْ عَقَلْتَـــا

٧. إلَـــى عِلْـــمٍ تَكُـــونُ بِـــهِ إمَامـــاَ مُطَاعـــاَ إنْ نَهَيْـــتَ وَإنَ أمَرْتَـــا

٨. وَتجْلُـــو مَـــا بِعَيْنِـــكَ مِـــنْ عِشَـــاهَا وَتهْـــدِيكَ الســـبيلَ إذَا ضَـــلَلْتَا

٩. وَتَحْمِـــلُ مِنْـــهُ فِـــي نَادِيـــكَ تَاجـــاَ وَيَكْسُـــوكَ الْجَمَـــالَ إذَا اغتربتَـــا

١٠. يَنَالُـــكَ نَفْعُـــهُ مَـــا دُمْـــتَ حَيـــاً وَيَبْقَـــى ذخْـــرُهُ لَـــكَ إنْ ذَهَبْتَـــا

١١. هُـوَ الْعَضْـبُ المُهَنّـدُ لَـيْسَ يَنْبُـو تُصِـيبُ بِـهِ مَقَاتِـلَ مَـنْ ضَـرَبتا

١٢. وَكَنْـزٌ لاَ تَخَـافُ عَلَيْـهِ لِصّـاَ خَفِيـفَ الْحَمْـلِ يُوجَـدُ حَيْـثَ كُنتَـا

١٣. يَزِيـدُ بِكَثْـرَةِ الإنْفَـاقِ مِنْـهُ وَيَـنْقَصُ إنْ بِـهِ كَفّـاَ شَـدَدْتَا

١٤. فَلَـوْ قَـدْ ذَقْتَ مِـنْ حَلْـوَاهُ طَعْمـاً لآثَـرْتَ الـتّعَلّمَ وَاجْتَهَـدْتَا

١٥. وَلَـمْ يَشْـغَلْكَ عَنْـهُ هَـوىً مُطَـاعٌ وَلاَ دُنْيَـا بِزُخْرُفِهَـا فَتِنْتَـا

١٦. وَلاَ أَلْهَـاكَ عَنْـهُ أنِيـقُ رَوْضٍ ولا خِـدرٌ برَبرَبـه كَلَفتَـا

١٧. فَقَـوتُ الـرُّوْحِ أرْوَاحُ الْمَعَـانِي وَلَـيْسَ بِـأنْ طَعِمْـتَ وَأنَ شَـرِبْتَا

١٨. فَوَاظِبْـهُ وَخُـذْ بِالْجِـدِّ فِيـهِ فَـإنْ أعْطَاكَـهُ اللهُ أخـذْتَا

١٩. وَإنْ أوتيـت فِيـهِ طَوِيـلَ بَـاعٍ وَقَـالَ النّـاسُ : إنّـكَ قَـدْ سـبقْتَا

٢٠. فَـلاَ تَـأمَنْ سُـؤَالَ اللهِ عَنْـهُ بِتَـوْبِيخٍ : عَلِمْـتَ ؛ فَهَـلْ عَمِلْتَـا؟

٢١. فَـرَأسُ الْعِلْـمِ تَقْـوَى اللهِ حَقّـاَ وَلَـيْسَ بِـأنْ يُقَـالَ : لَقَـدْ رَأسْـتَا

٢٢. وضـافي ثَوْبِـكَ الإحْسَـانُ لَا أنْ تُرَى ثَـوْبَ الإسَـاءَةِ قَـدْ لَبِسْـتَا

[1] ديوان الإلبيري ص٢٤

٢٣. إِذَا مَـا لَـمْ يُفِـدْكَ الْعِلْـمُ خَيْـراً فَخَيْـرٌ مِنْـهُ أَنْ لَـوْ قَـدْ جَهِلْتَـا

٢٤. وَإِنْ أَلْقَـاكَ فَهْمُـكَ فِـي مَهَـاوٍ فَلَيْتَـكَ ثَـمَّ لَيْتَـكَ مَـا فَهِمْتَـا

٢٥. سَتَجْنِي مِـنْ ثِمَـارِ الْعَجْـزِ جَهْـلاً وَتَصْـغُرُ فِـي الْعُيُـونِ إِذَا كَبِرْتَـا

٢٦. وَتُفْقَـدُ إِنْ جَهِلْـتَ وَأَنْـتَ بَـاقٍ وَتُوجَـدُ إِنْ عَلِمْـتَ وَقَـد فَقِـدْتَا

٢٧. وَتَـذْكُرُ قَـوْلَتِي لَـكَ بَعْـدَ حِـينٍ وتغبطَهـا إذا عنهَـا شُـغِلْتَا

٢٨. لَسَـوْفَ تَعَـضُّ مِـنْ نَـدَمٍ عَلَيْهَـا وَمَـا تُغْنِـي النَّدَامَـةُ إِنْ نَـدِمْتَا

٢٩. إِذَا أَبْصَـرْتَ صَـحْبَكَ فِـي سَـمَاءٍ قَـدِ ارْتَفَعُـوا عَلَيْـكَ وَقَـدْ سَـفَلْتَا

٣٠. فَرَاجِعْهَـا وَدَعْ عَنْـكَ الْهُـوَيْنَى فَمَـا بِـالْبُطْءِ تُـدْرِكُ مَـا طَلَبْتَـا

٣١. وَلاَ تَحفَـلْ بِمَالِـكَ وَالْـهُ عَنْـهُ فَلَـيْسَ الْمَـالُ إِلاّ مَـا عَلِمْتَـا

٣٢. وَلَـيْسَ لِجَاهِـلٍ فِـي النّـاسِ معْنـى وَلَـو مُلْـكُ الْعِـرَاقِ لَـهُ تَـأَتّى

٣٣. سَـيَنْطِقُ عَنْـكَ عِلْمُـكَ فِـي نَـدِيٍّ وَيُكْتَـبُ عَنْـكَ يَوْمـاً إِنْ كَتَبْتَـا

٣٤. وَمَـا يُغْنِيـكَ تَشْـيِيدُ الْمَبَـانِي إِذَا بِالْجَهْـلِ نَفْسَـكَ قَـدْ هَـدَمْتَا

٣٥. جَعَلْـتَ المَـالَ فَـوْقَ الْعِلْـمِ جَهْـلاً لَعَمْـرُكَ فِـي الْقَضِـيَّةِ مَـا عَـدَلْتَا

٣٦. وَبَيْنَهُمَـا بِـنَصِّ الْـوَحْيِ بَـوْنٌ سَـتَعْلَمُهُ إِذَا " طَـه " قَرَأْتَـا

٣٧. لَـئِنْ رَفَـعَ الْغَنِـيُّ لِـوَاءَ مَـالٍ لأَنْـتَ لِـوَاءَ عِلْمِـكَ قَـدْ رَفَعْتَـا

٣٨. لَـئِنْ جَلَـسَ الْغَنِـيُّ عَلَـى الْحَشَـايَا لأَنْـتَ عَلَـى الكَوَاكِـبِ قَـدْ جَلَسْـتَا

٣٩. وَإِنْ رَكِـبَ الْجِيَـادَ مُسَـوَّمَاتٍ لأَنْـتَ مَنَـاهِجَ التّقْـوَى رَكِبْتَـا

٤٠. وَمَهْمَـا افْـتَضَّ أَبْكَـارَ الْغَـوَانِي فَكَـمْ بِكْـرٍ مِـنَ الحِكَـمِ افْتَضَضْـتَا ؟

٤١. وَلَـيْسَ يَضُـرُّكَ الإِقْتَـارُ شَـيْئاً إِذَا مَـا أَنْـتَ رَبَّـكَ قَدْ عَرَفْتَـا

٤٢. فَمَـاذَا عِنْـدَهُ لَـكَ مِـنْ جَمِيـلٍ إِذَا بِفِنَـاءِ طَاعَتِـهِ أَنَخْتَـا

٤٣. فَقَابِلْ بِالْقَبُولِ صحيح نُصـحي فَـإِنْ أَعْرَضْـتَ عَنْـهُ فَقَـدْ خَسِـرْتَا

٤٤. وَإِنْ رَاعَيْتَـهُ قَـوْلاً وَفِعْـلاً وَتَـاجَرْتَ الإِلَـهَ بِـهِ رَبِحْتَـا

٤٥. فَلَيْسَـتْ هَـذِهِ الـدُّنْيَا بِشَـيْءٍ تَسُـوؤُكَ حِقْبَـةً وَتَسُـرُّ وَقْتَـا

٤٦. وَغَايَتُهَـــا إِذَا فَكّـــرْتَ فِيهَـــا كَفَيْئِـــكَ أوْ كَحُلْمِـــكَ إِنْ حَلَمْتَـــا

٤٧. سُـــجِنْتَ بِهَـــا وَأنْـــتَ لَهَـــا مُحِـــبٌّ فَكَيْـــفَ تُحِـــبُّ مَـــا فِيـــهِ سُـــجِنْتَا ؟

٤٨. وَتُطْعِمُـــكَ الطّعَـــامَ وَعَـــنْ قَرِيـــبٍ سَـــتَطْعَمُ مِنْـــكَ مَـــا منهَـــا طَعِمْتَـــا

٤٩. وَتَعْـــرَى إِنْ لَبِسْـــتَ بِهَـــا ثِيَابـــاَ وَتُكْسَـــــى إِنْ مَلاَبِسَـــــهَا خَلَعْتَـــا

٥٠. وَتَشْـــهَدُ كُـــلَّ يَـــوْمٍ دَفْـــنَ خِـــلٍّ كَأنّـــكَ لاَ تُـــرَادُ بِمَـــا شَـــهِدْتَا

٥١ وَلَـــمْ تُخْلَـــقْ لِتَعْمُرَهَـــا وَلَكِـــنْ لِتَعْبُرَهَـــا فَجِـــدَّ لِمَـــا خُلِقْتَـــا

٥٢ وَإِنْ هُـــدِمَتْ فَزِدْهَـــا أنْـــتَ هَـــدْماَ وَحَصِّـــنْ أمْـــرَ دِينِـــكَ مَـــا اسْـــتَطَعْتَا

٥٣ وَلاَ تَحْـــزَنْ عَلَـــى مَـــا فَـــاتَ مِنْهَـــا إِذَا مَـــا أنْـــتَ فِـــي أخْـــرَاكَ فَزْتَـــا

٥٤ فَلَـــيْسَ بِنَـــافِعٍ مَـــا نِلْـــتَ فِيْهَـــا مِـــنَ الْفَـــانِي إِذَا الْبَـــاقِي حُرِمْتَـــا

٥٥ وَلاَ تَضْـــحَكْ مَـــعَ السُّـــفَهَاءِ لهـــواَ فَإِنّـــكَ سَـــوْفَ تَبْكِـــي إِنْ ضَـــحِكْتَا

٥٦ وَكيـف لَـكَ السُّـرُور وَأنْـتَ رَهْـنٌ وَلا تَـــــدْرِي أتُفْـــــدَى أمْ غلِقْتَـــــا ؟

٥٧ وَسَـــلْ مِـــنْ رَبِّـــكَ التّوْفِيـــقَ فِيهَـــا وَأخْلِـــصْ فِـــي السُّـــؤَالِ إِذَا سَـــألْتَا

٥٨ وَنَـــادِ إِذَا سَـــجَدْتَ لَـــهُ اعْتِرَافـــاَ بِمَـــا نَـــادَاهُ ذَو النّـــونِ بْـــنُ مَتّـــى

٥٩ وَلاَزِمْ بَابَـــــهُ قَرْعـــــاَ عَسَـــــاهُ سَـــــيَفْتَحُ بَابَـــــهُ لَـــــكَ إِنْ قَرَعْتَـــــا

٦٠ وَأكّثِـــرْ ذِكْـــرَهُ فِـــي الأرْضِ دَأبـــاَ لِتُـــذْكَرَ فِـــي السَّـــمَاءِ إِذَا ذَكَرْتَـــا

٦١ وَلاَ تَقْـــلِ الصِّـــبَا فِيـــهِ مجـــالٌ وَفَكِّـــرْ كَـــمْ صَـــغِيرٍ قَـــدْ دَفَنْتَـــا

٦٢ وَقُـلْ لـي يَـا نَصِيح لأنْـتَ أوْلَـى بِنُصْـــحِكَ لَـــوْ بِعَقْلِـــكَ قَـــدْ نَظَرْتَـــا

٦٣ تُقَطّعُنِـــي عَلَـــى التّفْـــرِيطِ لَوْمـــاَ وَبِـــالتّفْرِيطِ دَهْـــرَكَ قَـــدْ قَطَعْتَـــا

٦٤ وَفِـــي صِـــغَرِي تُخَـــوِّفَنِي الْمَنَايَـــا وَمَـــا تجْـــرِي بِبَالِـــكَ حـــيْن شِـــخْتَا

٦٥ وَكُنْـتَ مَـعَ الصِّـبَا أهْـدَى سَـبِيلاً فَمَـــا لَـــكَ بَعْـــدَ شَـــيْبِكَ قَـــدْ نَكَسْـــتَا

٦٦ وَهَـا أنـاَ لَـمْ أخُـضْ بَحْـرَ الْخَطَايَـا كَمَـــا قَـــدْ خُضْـــتَهُ حَتّـــى غَرِقْتَـــا

٦٧ وَ لَـــمْ أشْـــرَبْ حمُيَّـــا أمِّ دَفْـــرٍ وَأنْـــتَ شَـــرِبْتَهَا حَتّـــى سَـــكِرْتَا

٦٨ وَ لَـــمْ أحْلَـــلْ بِـــوَادٍ فِيـــهِ ظَلْـــمٌ وَأنْـــتَ حَلَلْـــتَ فِيـــهِ وَانْهملْتَـــا

٦٩ وَ لَـمْ أنْشَـأ بِعَصْـرٍ فِيـهِ نَفْـعٌ وَأنْـتَ نَشَـأتَ فِيـهِ وَمَـا انْتَفَعْتَـا

٧٠ وَقَـدْ صَـاحَبْتَ أعْلاَمـاً كِبَـاراً وَلَـمْ أرَكَ اقْتَـدَيْتَ بِمَـنْ صَـحِبْتَا

٧١ وَنَـادَاكَ " الْكِتَـابُ " فَلَـمْ تُجِبْـهُ وَنَهنهَـكَ الْمَشِـيبُ فَمَـا انتَبَهْتَـا

٧٢ لَيَقْـبُحُ بِـالْفَتَى فِعْـلُ التّصَـابِي وَأقْـبَحُ مِنْـهُ شَـيْخٌ قَـدْ تَفَتّـى

٧٣ فَأنْـتَ أحَـقّ بِالتّفْنِيـدِ مِنِّـي وَلَـوْ سـكت المُسـيء لَمَـا نَطَقْتَـا

٧٤ وَنَفْسَـكَ ذَمَّ لاَ تَـذْمُمْ سِـوَاهَا بِعَيْـبٍ فَهْـيَ أجْـدَرُ مَـنْ ذَمَمْتَـا

٧٥ فَلَـوْ بَكَـتِ الـدِّمَا عَيْنَـاكَ خَوْفـاً لِـذَنْبِكَ لَـمْ أقُـلْ لَـكَ قَـدْ أمِنْتَـا

٧٦ وَمَـنْ لَـكَ بِالأمَـانِ وَأنْـتَ عَبْـدٌ أمِـرْتَ فَمَـا ائْتَمَـرْتَ وَلاَ أطَعْتَـا

٧٧ ثَقُلْتَ مِنَ الذّنُوبِ وَلَسْتَ تَخْشَى لِجَهْلِـكَ أنْ تَخِـفَّ إذَا وُزِنْتَـا

٧٨ وَتُشْـفِقُ لِلْمُصِرِّ عَلَـى المَعَاصِـي وَتَرْحَمُـهُ وَنَفْسَـكَ مَـا رَحِمْتَـا

٧٩ رَجَعْتَ الْقَهْقَرَى وَخَبَطْتَ عَشْوَا لَعَمْـرُكَ لَـوْ وَصَـلْتَ لمـا رَجَعْتَـا

٨٠ وَلَـوْ وَافَيْـتَ رَبَّـكَ دُونَ ذَنْـبٍ وَناقشَـكَ الْحِسَـابَ إذاً هَلَكْتَـا

٨١ وَلَـمْ يَظْلِمْـكَ فِـي عَمَـلٍ وَلَكِـنْ عَسِـيرٌ أنْ تَقُـومَ بِمَـا حَمَلْتَـا

٨٢ وَلَـوْ قَدْ جِئْـتَ يَـوْمَ الْفصْـلِ فَـرْداً وَأبْصَـرْتَ الْمَنَـازِلَ فِيـهِ شَـتّى

٨٣ لأعْظَمْـتَ النّدَامَـةَ فِيـهِ لَهْفـاً عَلَـى مَـا فِـي حَيَاتِـكَ قَـدْ أضَـعْتَا

٨٤ تَفِـرُّ مِـنْ الْهَجِيـرِ وَتَتّقِيـهِ فَهَـلاّ مِـنْ جَهَـنّمَ قَـدْ فَرَرْتَـا

٨٥ وَلَسْـتَ تُطِيـقُ أهْوَنَهَـا عَـذَاباً وَلَـوْ كُنْـتَ الْحَدِيـدَ بِهَـا لَـذَبْتَا

٨٦ فَـلا تَكـذبْ فَـإنّ الأمْـرَ جِـدَّ وَلَـيْسَ كَمَـا حَسِـبْتَ وَلاَ ظَنَنْتَـا

٨٧ " أبَـا بَكْـرٍ " كَشَـفْتَ أقَـلَّ عَيْبِـي وَأكْثَـرَهُ وَمُعْظَمَـهُ سَـتَرْتَا

٨٨ فَقُلْ مَـا شِـئْتَ فِـيَّ مِـنَ الْمَخَـازِي وَضَـاعِفْهَا فَإنّـكَ قَـدْ صَـدَقْتَا

٨٩ وَمَهْمَـا عِبْتَنِـي فَلِفَـرْطِ عِلْمِـي بِبَـاطِنتي كَأنّـكَ قَـدْ مَـدَحْتَا

٩٠ فَـلاَ تَـرْضَ الْمَعَايِـبَ فَهْـيَ عَـارٌ عَظِـيمٌ يُـورِثُ الإنسـان مَقْتَـا

٩١ وَتَهْـوِي بِالْوَجِيـهِ مِـنَ الثّرَيَّـا وَتُبْدِلُـهُ مَكَـانَ الْفَـوْقِ تَحْتَـا

٩٢ كَمَـا الطِّبَاعَـاتُ تُنعِلُـكَ الـدَّرَارِي وَتَجْعَلُـــكَ الْقَرِيـــبَ وَإِنْ بَعُـــدْتَا

٩٣ وَتَنْشُـرُ عَنْـكَ فِـي الـدُّنْيَا جَمِـيلاً فَـتُ ْلفَى البِـرَّ فِيهَـا حَيْـثَ كُنْتَـا

٩٤ وَتَمْشِـي فِـي مَنَاكِبِهَـا كريمـاً وَتَجْنِـي الْحَمْـدَ ممَـا قَـدْ غَرَسْـتَا

٩٥ وَأَنْـتَ الآنَ لَـمْ تُعْـرَفْ بِعَـابٍ وَلاَ دَنّسْـتَ ثَوْبَـكَ مُـذْ نَشَـأْتَا

٩٦ وَلاَ سَـابَقْتَ فِـي مَيْـدَانِ زُورٍ وَلاَ أَوْضَـعْتَ فِيـهِ وَلاَ خَبَبْتَـا

٩٧ فَـإِنْ لَـمْ تَنْـأَ عَنْـهُ نَشِـبْتَ فِيـهِ وَمَـنْ لَـكَ بِـالْخَلاَصِ إِذَا نَشِـبْتَا

٩٨ وَدَنِّـسُ مَـا تَطَهَّـرَ مِنْـكَ حَتّـى كَأَنّـكَ قَبْـلَ ذَلِـكَ مَـا طَهُرْتَـا

٩٩ وَصِـرْتَ أَسِـيرَ ذَنْبِـكَ فِـي وَثَـاقٍ وَكَيْـفَ لَـكَ الْفِكَـاكُ وَقَـدْ أَسِـرْتَا

١٠٠ وَخِـفْ أَبْنَاءَجِنْسِـكَ وَاخْـشَ مِـنْهُم كَمَـا تَخْشَـى الضَّـرَاغِمَ وَالسَّـبَنْتَى

١٠١ وَخَـالِطْهُمْ وَزَايِلْهُـم حِـذَاراً وَكُـنْ كَـ "السَّـامِرِيِّ " إِذَا لَمِسْـتَا

١٠٢ وَإِنْ جَهِلُـوا عَلَيْـكَ فَقُـلْ : سَـلاَمًا لَعَلَّـكَ سَـوْفَ تَسْـلَمُ إِنْ فَعَلْتَـا

١٠٣ وَمَـنْ لَـكَ بِالسَّـلاَمَةِ فِـي زَمَـانٍ يَنَـالُ الْعُصْـمَ إِلاّ إِنْ عُصِـمْتَا

١٠٤ وَلاَ تَلْبَـثْ بِحَـيٍّ فِيـهِ ضَـيْمٌ يُمِيـتُ الْقَلْـبَ إِلاّ إِنْ كُبِلْتَـا

١٠٥ وَغَـرِّبْ فَالْغَرِيـبُ لَـه نَفَـاقٌ وَشَـرِّقْ إِنْ بِرِيقِـكَ قَـدْ شَـرِقْتَا

١٠٦ وَلَـوْ فَـوْقَ الأَمِيـرِ تَكُـونُ فِيهَـا سُـمُّواَ وَافْتخَـارًا كُنْـتَ أَنْتَـا

١٠٧ وَإِنْ فَارَقْتَهَـا وَخَرَجْـتَ مِنْهَـا إِلَـى " دَارِ السَّـلاَمِ " فَقَـدْ سَـلِمْتَا

١٠٨ وَإِنْ كَرَّمْتَهَـا وَنَظَـرْتَ منهَـا بِـإِجلالٍ فَنَفْسَـكَ قَـدْ أَهَنْتَـا

١٠٩ جَمَعْـتُ لَـكَ النّصَـائِحَ فَامْتَثِلْهَـا حَيَاتَـكَ فَهْـيَ أَفْضَـلُ مَـا امْتَثَلْتَـا

١١٠ وَطَوَّلْـتُ الْعِتَـابَ وَزِدْتُ فِيـهِ لأَنّـكَ فِـي الْبَطَالَـةِ قَـدْ أَطَلْتَـا

١١١ فَـلاَ تأخـذ بتَقْصِـيرِي وَسَـهْوِي وَخُـذْ بِوَصِـيَّتِي لَـكَ إِنْ رَشَـدْتَا

١١٢ وَقَـدْ أَرْدَفْتُهَـا سِـتًّا حِسَـاناً وَكَانَـتْ قَبْـلَ ذَا مِائَـةً وَسِـتّا

* المبحث الأول *

هيمنة الفعل المضارع مرتبطا بالصورة البيانية أحيانا كوسيلة لإحياء الأحداث وتجددها ، وبيان أثر ذلك في دلالات التراكيب – الأبيات (١:١٧) .

إنَّ أول ما يلفت انتباه القارئ إحكام النسج ، وجودة السبك التي تضع عينه على قطعة فنية تتلاحم أجزاؤها ، ويشد بعضها أواصر بعض ، خيوط متينة تتداخل وتتشابك ؛ لتشكل نسجا محكم الأركان قوي البنيان ، بحيث لوسقطت بعض جزئياته لشعرت بالخلل ، تلك هي تراكيب القصيدة يسلمك كل جزء منها إلى ما يليه في تسلسلٍ تشعر معه بالسهولة إلا إنه من الممتنع بمكان يأبى إلا على أهل البلاغة وأرباب اللسان ، فهي الناقل الأول الذي يحلق به الشاعر في سماء الخيال ، ويتجول به في حدائق الزينة يلتقط منها ما يتم به الإبداع .

والشاعر في فاتحة القصيدة يكاد يبنيها على الجمل الخبرية ذوات الفعل المضارع إلا القليل كإطار زمني يوضح تقدم العمر ، ويخبر عما آل إليه حاله ، وما يستدعيه ذلك الحال من التأهب للرحيل إلى جانب وعظ غيره ؛ ليرتجع عن سوء أفعاله ، كل ذلك تلعب فيه الجمل الفعلية ذات الفعل المضارع دورا كبيرا يتخلله بعض الصور البيانية ؛ لإحياء المعنى مبالغة في تأكيد محتواه ، وبذلك يلعب المضارع دورا رئيسيا تكاد تبنى عليه الأبيات ؛ إلا قليلا مما ورد من جمل اسمية اقتضاها المقام ، فإذا نظرت إلى افتتاح القصيدة وجدته يبدأ بالأفعال المضارعة قائلا :

" تَفُتّ[١] فُؤَادَكَ الأَيَّامُ فَتًّا - وَتَنْحِتُ جِسْمَكَ السَّاعَاتُ نَحْتَا - وَتَدْعُوكَ المْنَونُ دُعَاءَ صِدْقٍ "

وسره البلاغي يكمن في بيان تجدد تلك الأفعال ما استمر به الزمان حتى يوافيه أجله ؛ ليبث الرعب في قلب المخاطب ؛ حتى يفيق من ثباته ، فهو فتٌّ تلو الآخر ، ونحتٌ يتبعه نحت ، ودعاء للموت يتلوه دعاء آخر ، وفي ذلك أقصى درجات التذكير بالموت ؛ استعدادا للآخرة ؛ حتى إذا غفلت نفسه تذكرت تلك الأفعال المتكررة ، فانتبهت من غفلتها، فالفعل المضارع هنا يعد كناقوس خطر يدق دقا تلو الآخر موقظا ومنبها .

ومن هنا وصل الشاعر بين الجمل الثلاث (تفت... - تنحت.... - تدعوك...) ؛ للتوسط بين الكمالين ، فجميعها خبرية فعلية فعلها مضارع وهو من محسنات الوصل .

ويبدو سره البلاغي في تسلسل أثر تلك الأفعال التدميرية التي تنفذ إلى الفؤاد مباشرة أي إلى صميم حياته ، فهو فتٌّ للفؤاد يتبعه نحت للجسد يصاحبهما دعاء للموت ، مع قوة التأكيد النابعة من المفعول المطلق (فتًّا – نحتًا – دعاءً) مبالغة في بيان استهداف تلك الأيام للشاعر ، فهي ترمي بطلقاتها في قلبه ، وتأبى إلا أن يلقى حتفه.

وقدَّم المفعول في (فؤادك) و (جسمك) على المسند إليه (الأيام – الساعات) ؛ مبالغة في بيان شدة وقع الأثر على فؤاده خاصه وجسده عامة ، فقد براه الزمان فتآكل أشد ما يكون التآكل ، وفيه بيان لبالغ استهداف المنية للشاعر.

ولهذا أتبعه بالنداء قائلا:

" أَلاَ يَا صَاحِ: أَنْتَ أُرِيدُ أَنْتَا "

زيادة في التنبيه ، ومبالغة في التأكيد ، وكرر الضمير (أنت) تأكيدا، و قدَّم اللفظ (أنت) على الفعل (أريد) ؛ لتقوية ذاك التأكيد، يعني أن المنية خصته بالنداء ، واختارته دون غيره ، وألحت عليه بدعائها تأكيدا للتنبيه ، مع توالي أحرف المد في الكلمات الثلاث (ألا – يا – صاح) " مع ما لها من وظيفة موسيقية فنية تفسح المجال لتنوع النغم الموسيقي لسعة إمكانيتها الصوتية "[٢] .

وهذا يعود بدوره بلاغيا على المعنى ليفيد مزيدا من رفع الصوت بالترهيب إخافة للسامع وجذبا لانتباهه ؛لينظر في حاله ويعتبر استعدادا للرحيل .

وفي قوله:" تفتُّ فؤادك الأيام فتا " مجاز عقلي ؛ حيث أثبت (الفت) للأيام ، وأحد طرفي الإسناد مجاز ؛ فالفؤاد لا يُفَت فتا حسيا ، ولكن قد يصيبه تعب ونصب مع مرور الأيام وتقارب الآجال .

---

[١] فتَّه فتًّا : دقه وكسره /لسان العرب لابن منظور مادة (فتت)ط١ دار المعارف ١٩٨١م.

[٢] ينظر: فقه اللغة وخصائص العربية –د/ محمد المبارك:٢٥٦ ط١ دار الفكر١٩٦٨م

وتكمن بلاغة المجاز في استخدامه لفظة (الفت) دون غيرها ؛ لأنها من أبلغ المعاني الدالة على التكسير إلى جزئيات صغيرة ، وهذا ما أراده الشاعر ، فهو لا يريد كسرا واحدا ، ولا قسما إلى شقين ، ولكن يريد تفتيتا دقيقا ؛ ليصعب معه التعلق بالحياة وملذاتها ، ولا يبقى له رغبة في الدنيا بعدما أصبح كيانا هشا ينتظر الموت ويرجو الآخرة .
وكذا في قوله :" وتنحت جسمك الساعات نحتا " مجاز عقلي علاقته الزمانية ، حيث أثبت النحت للساعات ، وأحد طرفيه مجاز أيضا ؛ لاستخدامه لفظة النحت بدلا من النحافة وهو ما أضفى على المجاز قيمة بلاغية متمثلة في دقة اختيار اللفظ ، فالنحت يمثل صورة حية للبري والتآكل ، لينقل لنا الشاعر بتلك اللفظة مشهدا مرئيا لما آل إليه حاله بعد الكبر من النحافة ودقة الجسم ، فهو رسول ينذره بقرب أجله ليتأهب لذلك .
وفي قوله :" وتدعوك المنون دعاء صدق " استعارة مكنية[1] .
وبلاغة الاستعارة تكمن في تجسيد المنية في هيئة الداعي المُلح في دعائه بصدق وشدة ، المُصر على إجابة الدعوة التي لا مفر منها ، ولا ملاذ عنها إلى غيرها ؛ لينذر نفسه والمخاطب بقرب الأجل فيهيئ النفس بما يزكيها استعدادا للرحيل.

والشاعر لم يقل (تفت فؤادي أو تنحت جسمي) ، ولكن قال : (تفت فؤادك وتنحت جسمك) فهو في كل هذا يجرد من نفسه شخصا آخر يخاطبه على سبيل التجريد[2] ؛ ليصح له عتاب نفسه ، وتوجيه اللوم إلى غيره بطريق خفي لطيف .
وفي قوله (تفت – فتا) و (تنحت – نحتا) و (تدعوك – دعاء) :
جناس اشتقاق تبدو بلاغته في ذلك الجرس النغمي الذي يمر على الآذان موقظا كل غافل عن اقتراب آخرته ، فهي دقات متتالية تقع الواحدة منها تلو الأخرى في مرور مؤثر ليس على الآذان فقط ، ولكنه على القلوب أشد ؛ حيث يمده المفعول المطلق بمزيد من التقوية والتأكيد .
وبين (الأيام) و (الساعات) مراعاة للنظير ، وتبدو بلاغة تلك المراعاة في بيان تكاتف الزمان بأيامه وساعاته ضد الشاعر ، حتى بات في فكر دائم وشغل شاغل بحاله وما سيؤول إليه .

والشاعر فيما سبق برع في استهلال قصيدته ؛ لتناسب معانيه وألفاظه مع الغرض الذي يسعى إليه في قصيدته ألا وهو الوعظ لشخص ما يدعى (أبا بكر) كان قد تناول الشاعر بالطعن والذم[3] ، فرد عليه الشاعر بهذه القصيدة موضحا له أن الدنيا متاعها قليل زائل ، وأن التزود للآخرة هو خير من التشبث بالدنيا ، وأن به من المعايب وسوء الحال ما يكفيه لأن يشغل نفسه بحاله ولا يتطرق إلى غيره بالسب والطعن ، فإن كان في الشاعر عيوب فهي نقطة من بحر عيوب الطاعن ، فقد افتتح قصيدته بما ينبئ عما سيندرج تحتها من معاني وكما قيل :" الشعر قفلٌ أوله مفتاحه ، وينبغي للشاعر أن يجوِّد ابتداء شعره فإنه أول ما يقرع السمع ، وبه يُستدلُ على ما عنده من أول وهلة"[4]، " فإذا كان الابتداء لائقا بالمعنى الوارد بعده توافرت الدواعي على استماعه"[5] ، فمطلع القصيدة يعتبر عنوانا لها فإذا تُرجم للشاعر اكتفي عن ذكر القصيدة بذكر مطلعا ؛ إذ هو عنوان لها[6] .
أضف إلى ذلك براعته في الصورة البيانية ، وفي تجريده من نفسه شخصا يخاطبه ، وفي استخدامه جناس الاشتقاق بين (تفت فتا – تنحت نحتا) ، وزد على هذا التصريع بين شطري البيت الأول (فتا) و (نحتا) ، والتصريع في شعر الشاعر" دال على سعة في فصاحته ، واقتدار منه في بلاغته "

---

[1] . إجراء الاستعارة: شبه المنون بالداعي ، وحذف المشبه به ، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الدعاء .
[2] قد يقع التجريد في الخطاب بأن يجرد المتكلم نفسه من ذاته ، ويجعلها شخصا آخر يخاطبه " ينظر/ التبيان في البيان للإمام الطيبي – تحقيق د/ عبد الستار حسين زموط ص٤٢٤- ط١ دار الجيل –بيروت ١٤١٦هـ ١٩٩٦م
[3] ينظر: الديوان ص٢٤
[4] العمدة لابن الرشيق القيرواني-تحقيق/محمد محي الدين م١/١/١٨١ ط١دار الطلائع ٢٠٠٦م
[5] المثل السائر في أدب الشاعر والكاتب لابن الأثير – تحقيق/ أحمد الحوفي – بدوي طبانة ٩٦/٣ ط١ دار نهضة مصر د.ت
[6] منقول بتصرف ،ينظر: مدخل إلى علم الأسلوب د/ شكري عياد ص ٥٩ ط٤نشر أصدقاء الكتاب ١٩٨٨م

والشاعر أتى به في البيت الأول فقط ، " وهو إنما يحسن إذا كان قليلا في القصيدة بحيث يكون جاريا مجرى الطراز للثوب ، والغرة في وجه الفرس "[1] وذاك من فعل " الفحول والمجيدين من الشعراء "[2] فقد أجاد الشاعر خير إجادة في ذاك الاستهلال؛ليكون استهلاله داعية إلى استماع ما يأتي بعده من كلام.[3]

أَرَاكَ تُحِبُّ عِرْساً ذَاتَ غَدْرٍ أَبَتَّ طَلاَقَهَا الأَكْيَاسُ بَتَّا[4]

بدأ بالمضارع فقال: " أراك تحب "؛ ليبين تجدد الحب المراد به التشبث بالدنيا وشهواتها ، واضعا الدنيا في صورة العروس بما تحمله هذه الصورة من فرط الرغبة وشدة التعلق بها ، ناعتا إياها بالغدر ؛ لينفر نفسه من التعلق بها ، معللا ذلك بما ورد في الشطر الثاني :" أَبَتَّ طَلاَقَهَا الأَكْيَاسُ بَتَّا "

ليقطع على نفسه هذا التعلق ، ويطرحه من قلبه ، يعينه على ذلك قطع الحكماء بضرورة طرح الدنيا ونبذها ، يستفاد المعنى من تحقق الوقوع الكامن في الفعل الماضي (أبت) ، وتأكيده بالمفعول المطلق (بتا) ، ونسبة (البت في الحكم) إلى (الأكياس) خاصة ، أي إلى عقلاء القوم وحكمائهم ، إلى جانب ذكر صفتها في البيت الأول ، وهو قوله :" ذات غدر "منكرا لفظة (الغدر) ؛ تفخيما لغدرها الذي استحقت به الترك من جانب ، ومن جانب آخر أقره على تركها (الأكياس) النبهاء ذووا الفطنة أصحاب العقول ؛ لذا لم يعد هناك مجال للندم على تركها .

وبالبيت استعارة أصلية مرشحة ؛ فقد استعار العروس للدنيا بجامع الرغبة في كل منهما ، ورشح للاستعارة بقوله :" أبت طلاقها " ، فالطلاق يناسب المشبه به (العروس) لا الدنيا.

والسر البلاغي للاستعارة يكمن في دقة اختيار عنصر المشبه به ؛ إذ العروس هي أرغب للرجل ، تشتهيها نفسه ، ثم في تقبيح هذا العنصر رغما من شدة شغف النفس به ؛ إذ جعلها ذات غدر ، وجعل من الحكمة طلاقها ، فنفر منها بعد أن كانت محل شغف تتوق لها النفس ؛ لينعكس ذلك الوصف على الدنيا بالتنفير منها والتحذير من اللهث وراء شهواتها .

وبين (أبتَّ) و (بتًّا) جناس اشتقاق تبدو بلاغته في ذلك التأكيد النابع من المفعول المطلق تأكيدا يقطع على الراغب رغبته .

تَنامُ الدَّهْرَ وَيْحَكَ فِي غَطِيطٍ بِهَا حَتَّى إِذَا مِتَّ انْتَبَهْتَا[5]

عبَّر بالمضارع (تنام) ؛ ليبين تكرار الغفلة عن الآخرة شغفا بالدنيا .

وجعل (النوم) يقع على (الدهر) ، فلم يقل : (تنام الليل ، أو النهار ، أو اليوم) ، ولكن جعل النوم للدهر ؛ مبالغة في بيان الغفلة ، والاستغراق في لهو الدنيا ، فهي غفلة السنين ، ونوم العمر بأكمله .

وجعل النوم (غطيطا) يُسمع له صوت ، ونكَّر الكلمة ؛ ليوضح عظم الاستغراق البالغ مداه ، المجاوز للحد .

ولأجل تنبيه نفسه ، وإيقاظها من تلك الغفلة العميقة اعترض بقوله :"ويحك "،وهي كلمة ترحم تُقال لمن تنزل به بليه[6]، قالها ؛ تنبيها لنفسه وللمخاطب ؛ حتى يستفيق من غفلته ، والشاعر في كل تلك التنبيهات وفي زجره لنفسه كان على تقوى ، وعُلِم عنه الصلاح والاستقامة ، واشتهر بالزهد ، ولكن تلك عادة الزهاد يزجرون أنفسهم ؛ ليزيدوا من تقواها ، وفيه أيضا حث خفي للآخر على تدبر المعاني ، واتباع غاياتها، وفهم مراميها .

---

[1] الطراز للعلوي – راجعه / محمد عبد السلام شاهين ص٤١٣ ط١ دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ١٤١٥هـ ١٩٩٥م

[2] نقد الشعر لقدامة بن جعفر –تحقيق /محمد عبد المنعم خفاجي ص٨٠ ط١مكتبة الكليات الأزهرية ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م

[3] ينظر الصناعتين لأبي هلال العسكري – تحقيق : علي محمد البجاوي –محمد أبو الفضل إبراهيم ص٤٠٤ ط١ المكتبة العصرية بصيدا – بيروت ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م

٤ العِرْس: الزوج ، يقال هو عِرسها ، وهي عِرْسه ، وهما عِرسان / اللسان مادة (عرس).

بتَّ اليمين : جزم بها وأمضاها ، وبت طلاق امرأته : جعله باتا لا رجعة فيه / السابق مادة (بتت).

الأكياس :(ج) كيِّس ، والكيِّس العاقل / السابق مادة (كَيَسَ) .

٥غط النائم : نخَر ، والغطيط : الصوت الذي يخرج مع نفس النائم / اللسان مادة (غطط).

[6] ينظر السابق- مادة (ويح)

واستخدام الماضي ، وتقييده بـ(إذا) في الفعل (متَّ) تحقيق وتغليب لحدوث الفعل فالموت هو الحقيقة التي لا تنكر ، وفيه تنبيه للمخاطب بأن موته يكاد يكون في أقرب وقت ؛ لأنه قريب آت .

(حتى) : لانتهاء الغاية[1] .
وجعل غاية الانتباه الموت ، وتبدو بلاغة ذلك التعبير في بيان استغراق الخلق في الغفلة تائهين في دروب الدنيا ، منغمرين في شهواتها حتى يأتيهم الحق اليقين الموقظ للغافلين من السبات العميق على الجزاء الأوفى .

وقوله :" تنام الدهر " كناية عن صفة ، وهي الغفلة ، ينبه بها نفسه والمخاطب إلى ضرورة الإفاقة من تلك الغفلة ، وضرورة التذكر والتفكر في الآخرة .

فَكَمْ ذَا أَنْتَ مَخْدُوعٌ وَحَتَّى مَتَى لاَ تَرْعَوِي عَنْهَا وَحَتَّى

(كم) خبرية للتكثير ، توضح كثرة انخداعه بالدنيا ، وفي توجيه الخطاب بالضمير (أنت) تأكيد لحث نفسه عن طريق التجريد ، وحث غيره بلطف على الانتباه لخدع الدنيا ، وفي استخدامه الاسم (مخدوع) بيان لثبوت انخداعه بها.
قوله :" وحتى متى لا ترعوى عنها ؟ "
استفهام توبيخي يشوبه شيء من التعجب ، تبدو بلاغته في قرع نفسه والمخاطب وزجرها عن ذلك التعلق وهذا الشغف الذي أنساه كل ما عدا الدنيا وملأ قلبه بحبها ، ليكون ذلك الزجر أقوى ردعا له وأبين للدرب الصحيح .
" حتى " الثانية معطوفة على (حتى) الأولى مؤكدة لتوبيخ الشاعر لنفسه ولكل من تعلق بالدنيا .

" أَبَا بَكْرٍ" دَعَوْتُكَ لَوْ أَجَبْتَا إِلَى مَا فِيهِ حَظُّكَ إِنْ عَقَلْتَا[2]

هنا يبدأ الشاعر في غرضه من القصيدة ، وهو توجيه اللوم والعتاب إلى من دعاه (أبا بكر) ، وذكره بكنيته بغرض " إحضاره بعينه في ذهن السامع[3] " وهو رجل قد ذكر بعض معايب الشاعر ، فبلغه ما قال في حقه ، فوجه له لوما وعتابا يتخلله نصح وإرشاد في تلك القصيدة الوعظية التي تحمل حكمة الشاعر وخبرته في الدنيا .

وقد حذف الشاعر أداة النداء ، والأصل :(يا أبا بكر) ؛ استشعارا بقرب المنادى ،ورفقا في العتاب ؛ تفضلا على المخاطب ؛ على الرغم من خطئه في حق الشاعر ، فلم يرد عليه بقسوة بل بلطف ولين ؛ ليوضح له أنه أعلى قدرا من جانب ، ومن جانب آخر يرجو نجاته باتباعه النصح وطريق الرشد بسبيل لين يسير يستميل به قلب المخاطب فيجذبه للاستجابة.
واستخدم الماضي فقال :" دعوتك" ، ولم يقل: (أدعوك) ؛ ليحقق وقوع الدعاء من الشاعر للمخاطب ، وكأن كل ما سيأتي من نصح وتوجيه وإرشاد حادث بالفعل وجهه الشاعر منذ زمن للمخاطب ، وربما نصحه من قبل ولم يستجب فذكَّره به .
ولذا أجد الشاعر يقيد الماضي في (أجبتا) بـ(لو) ؛ ليوضح استبعاد حدوث الفعل ، فالشاعر ينصح من لا يستجيب ، لذا رغَّبه في سماع النداء والاستجابة إلى النصح بقوله :" إلى ما فيه حظك "؛ ليوضح أن هذا النصح مما ينفعه في دنياه .
واستخدم الموصول (ما) ؛ للتفخيم من شأن المدعو إليه أي من قيمة النصح .

---

[1] ينظر: كفاية المُعاني في حروف المعاني للشيخ عبد الله الكُردي البيتوشي – شرح وتحقيق / شفيع برهاني ص١٩٣ ط١ دار اقرأ للطباعة والنشر ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م
(٢) أبا بكر : كنية المخاطب في القصيدة ، وهو شخص قد هجا الشاعر ، فرد عليه الشاعر بتلك القصيدة عاتبا وواعظا ، ولم استدل على ذلك الرجل ، وكذا لم يستدل عليه محقق الديوان .
[3] ينظر: إسفار الصباح عن ضوء المصباح لابن النحوية – تحقيق د/ إبراهيم بن عبد العزيز الزيد ١٧٥/١ ط١ دار كنوز إشبيليا بالسعودية – الرياض ١٤٣٣هـ ٢٠١٢م .

وقدَّم الجار والمجرور (فيه) على قوله :" حظك " ، والأصل (إلى ما حظك فيه) ؛ اهتماما ببيان شأن ذاك النصح .
ومن ثم يؤكد ضعف استجابة الرجل بقوله:" إن عقلتا " مدخلا (إن) على الماضي ؛ ليوضح ندرة تحقق الفعل ، مما يوضح أن المخاطب قليل الفطنة لا يتبع مسالك الخير وإن أُرشِد لها .

إِلَـــى عِلْـــمٍ تَكُـــونُ بِـــهِ إِمَامـــاً مُطَاعـــاً إِنْ نَهَيْـــتَ وَإِنَ أَمَرْتَـــا

نكَّر لفظة علم ؛ تفخيما من شأنه ، وتنبيها للمخاطب إلى علو منزلة المدعو إليه وهو العلم ؛ ليستجيب للدعاء .
وأتبعه بتنكير لفظتي (إماما – مطاعا) ؛ للتفخيم من شأن حامل العلم ، وإعلاء لكلمته ، وفيها تنبيه على أن العلم من أسس الإمامة .
وقدَّم النهي على الأمر في قوله :" إن نهيت وإن أمرتا " ؛ ليوضح تمكن العالم ذي الرأي السديد من طاعة الناس له ؛ ثقة منهم في حكمته الصائبة ، فتجدهم يمتثلون لنواهيه قبل أوامره ؛ لعلمهم برجاحة رأيه ، وفطنة عقله ، مستخدما المضارع (تكون)؛ ليجعل جميع ما سبق من كونه إماما مطاعا وصفا متكررا يتكرر معه كلما ازداد علما.
وبين (نهيت) و (أمرت) طباق .
تبدو بلاغته في بيان امتثال المأمومين لإمامهم على كل الأحوال في أمره ونهيه ، فالطباق ينقل جهتي الاختلاف(الأمر والنهي) إلى سبيل واحد من التوافق ألا وهو الطاعة .

وَتجْلُـــو مَـــا بِعَيْنِـــكَ مِـــنْ عِشَـــاهَا وَتهْـــدِيكَ الســـبيلَ إِذَا ضَـــلَلْتَا[1]

تظهر هيمنة الفعل المضارع على أبيات الشاعر فأجده يكرره مرارا في معظم أفعاله مرتبطا في بعض أحواله بصورة بيانية أو محسن بديعي يزيد من رونق الشعر وبلاغته قائلا :" تجلو ما بعينك – تهديك السبيل " فلا يزال العلم يجلو عشا بصيرته ويهديه السبيل يتكرر ذلك كلما اتبع دروب العلم ، ووصل بين الجملتين ؛ للتوسط بين الكمالين ، وفي الوصل ربط لتسلسل منافع العلم الجمة .
أما استخدامه الماضي فورد مقترنا بالأفعال المضارعة في الجمل نفسها ، نحو قوله :" تهديك السبيل إذا ضللتا "
وهو هنا مقيد بـ(إذا) ؛ ليفيد تغليب حدوث الفعل ، فقد يضل الإنسان في حياته ثم يعود لرشده ويحكم عقله.
وكما وضحت أن المضارع قد هيمن على الأبيات وارتبط في بعض مواضعة بالصورة البيانية ومنه قوله :" تجلو ما بعينك من عشاها " ؛ حيث سلط التكرار النابع من المضارع (تجلو) على الاستعارة الأصلية[2] في (عشاها) ، فجعله جلاء يتلوه جلاء مما يخدم المعنى الذي أراده الشاعر من بيان قيمة اكتساب العلم .
والسر البلاغي للاستعارة إلى جانب عنصر التكرار المستفاد من المضارع يظهر أيضا في نقل المعنى العقلي إلى الحسي ؛ حيث عبَّر عن ضعف التقدير وقلة إدراك ماهية الأمور بالعشا وهو ضعف البصر فأوضح المعنى ؛ حيث نقله إلى الصورة الحسية ، فمكنه من الذهن وأبان دلالته وذاك أبلغ في التعبير .
وبين (تهديك) و (ضللتا) طباق
يوضح الطباق أثر العلم في استبانة الطريق ، فهو الناقل من ضلال الفكر إلى الهداية ، ومن ظلمة السبيل إلى نوره .

وَتَحْمِـــلُ مِنْـــهُ فِـــي نَادِيـــكَ تَاجـــاً وَيَكْسُـــوكَ الْجَمَـــالَ إِذَا اغتربتَـــا

---

(١) عشا عشوا : ضعف بصره ليلا / اللسان مادة (عشو)

[2] إجراء الاستعارة :استعار العشا وهو ضعف الرؤية لضعف الإدراك وقلة تقدير الأمور بجامع القصور في كل. كل.

استخدم المضارع (تحمل – يكسوك)؛ ليبين تجدد زينة العلم لصاحبه على مر حياته ، فيستمر يحمل منه تاجا فوق رأسه يكسوه جمالا كلما تحلى بالعلم .
واستخدم الماضي مقيدا بـ(إذا) في (إذا اغتربتا) ؛ ليبين أن سفر البشر واغترابهم أمر وارد بكثرة في حياتهم ، والمفارقة في استخدام المضارع في بداية الجملة ، والماضي في نهايتها توضح أن تجدد الفعل مرتبط بحدث وقع في حياته ،فإذا وقع اغتراب العالم فإن علمه يكسوه جمالا يتلوه جمال لا ينقطع ماانتفع بعلمه ونفع به حتى تصبح هيبته تاجا يحل معه متى رحل ، وتقع هيبته في القلوب متى حل أو ظعن .
ومن هنا نكَّر لفظة (تاجا) ؛ لتعظيم شأن التاج ، فالعلم تاج فوق رأسه يزينه في ناديه وسط قومه وخصَّ النادي بالذكر ؛ لأن اجتماع القوم وتبادل الآراء يظهر ماهية العقول ، ويوضح رجاحتها من خفتها ، فإذا زان العلم صاحبه فهو تاج أفخم وأعظم من تيجان الملوك أجمعين .
واستخدم (من) للتبعيض[1] في قوله :" تحمل منه تاجا " ، ولم يقل (تحمله تاجا) ؛ليجعل من بعض العلم العلم تاجا على الرأس ، وذاك أبلغ من جعله كله تاجا ؛ لأنه إذا كان اكتساب القليل من العلم يحمله تاجا ، فما الحال مع الكثير منه ، هذا ومن جانب آخر ؛ لاستحالة استيعاب فرد من الأفراد للعلم كله ، فلا إحاطة إلا للعالم الواحد ، والكل بعد ذاته القديرة فقراء .
وعرَّف لفظة (الجمال) ؛ بـ(أل) التي للجنس ؛ ليجعله يحمل من العلم جنس الجمال بكل ما يندرج تحت كلمة الجمال من معان تنشرح لها النفس .
وفي قوله :" يكسوك الجمال " استعارة تبعية :
فالجمال يزين المرء لا يكسوه ، وسر بلاغة الاستعارة في بيان اشتماله على الجمال ، وكأنه يرتدي الجمال ثيابا ، هذا إلى جانب التكرار النابع من المضارع في (يكسوك) والدال بدوره على تجدد ذلك البهاء أينما راح أو اغتدى .
وفي قوله :" تحمل منه في ناديك تاجا " تجريد:
حيث انتزع من العلم تاجا يزين حامله مبالغة في بيان زينة العلم لصاحبه .

يَنَالُكَ نَفْعُهُ مَا دُمْتَ حَياً وَيَبْقَى ذُخْرُهُ[2] لَكَ إِنْ ذَهَبْتَا

مازال الشاعر يستخدم الفعل المضارع قائلا :" ينالك ... ويبقى "
ليفيد تكرير الحدث مما يخدم الهدف الذي يرمي إليه الشاعر من دعوة المخاطب إلى التحلي بالعلم ؛ ليظل نفعا له في الدنيا وذخرا في الآخرة .
أما الفعل الماضي الوارد في البيت في قوله : " إن ذهبتا " فقيده بـ(إن) مع أن الموت المعبر عنه بـ(الذهاب) واقع يحدث للجميع متوقع في كل لحظة ، ولكن الشاعر أبعده بعض الشيء في موضعه هذا ؛ لأنه في مقام استمالة الرجل وجذب قبوله للتزود من العلم ، وهو مطلب دنيوي وإن جعله خالصا لله ؛ إلا إنه يسعى إليه في دنياه ، فوضع له الشاعر الأمل في الحياة بإبعاد الذهاب للآخرة بعض الشيء ؛ ليوسع له ساحة التزود من العلم النافع ، والاستجابة للنصح ، فاستخدام (إن) هنا تبدو كعنصر جذب للمخاطب .
وعبَّر عن الموت بالذهاب على سبيل الاستعارة التبعية في الفعل ، فكلاهما ذهاب وإن كان الأول ذهاب بلا عودة .
وتبدو بلاغة الاستعارة في الابتعاد عن اللفظ المنفر ، وهو لفظ الموت ، فقوله :(إن متا) بدلا من :" إن ذهبتا " يحمل شيئا من التنفير وكراهة النفس لتقبله ، والشاعر في مقام النصح يرجو قبول المخاطب لنصحه فابتعد عن اللفظ المنفر.

---

[1] تأتي (من) للتبعيض نحو " لبست من الثياب ثوبا "/ ينظر :معاني الحروف للرماني – تحقيق:د/ عبد الفتاح شلبي ص٩٧ ط١ القاهرة ١٩٧٣م
وينظر : من أسرار التعبير في القرآن (حروف القرآن) د/ عبد الفتاح لاشين ص١٠٧ ط١ مكتبة عكاظ – السعودية ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م
١. ذَخَرَ ذَخْرًا : حفظه لوقت الحاجة إليه / اللسان مادة (ذخر)

وقوله :"ما دمت حيا " و " ذهبتا " مما يلحق بالطباق ؛ حيث " جمع بين معنيين يتعلق أحدهما بما يقابل الآخر نوع تعلق "[1] وهو السببية ، فالذهاب مسبب عن الموت الذي هو ضد الحياة .
والسر البلاغي للطباق يكمن في بيان قيمة العلم لحامله في جميع أحواله حيا كان أوميتا ، فهو في الحياة نور يبين له الطريق ، وفي الممات ذخر للحسنات ينتفع به .

هُوَ الْعَضْبُ المُهَنَّدُ لَيْسَ يَنْبُو تُصِيبُ بِهِ مَقَاتِلَ مَنْ ضَرَبتا
وَكَنْزٌ لاَ تَخَافُ عَلَيْهِ لِصّا خَفِيفَ الْحَمْلِ يُوجَدُ حَيْثُ كُنْتَا
يَزِيدُ بِكَثْرَةِ الإِنْفَاقِ مِنْهُ وَيَنْقُصُ إِنْ بِهِ كَفّاً شَدَدْتَا[2]

وتأتي الجملة الاسمية على استحياء بين هذا الكم من الجمل الفعلية في قوله :" هو العضب المهند " ، والضمير عائد على العلم ، وأتى بها اسمية لتدل على ثبات المعنى ، فالعلم سيف باتر يقطع أعناق الجهال ثبت هذا على مر العصور ، فكم من جدال بين عالم وجاهل أسفر عن إعلاء نور العلم وتراجع سخافة الجهل وظلامه.
وعرَّف لفظة (العضب) بـ(أل) للجنس ، ووصفه بلفظة (المهند) ؛ ليجعله من جنس السيف العضب الباتر الذي لا يخطئ مقصده ؛ مبالغة في نقل ما لهذا الجنس من الصفات إلى الموصوف .
واستخدم الموصول (من) في قوله :" تصيب به مقاتل من ضربتا "
للتفخيم من قوة المضروب بسلاح العلم ، ومع ذلك يصيبه العالم في مقتل ، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على قوة العالم بعلمه ، فالعالم إذا رد على أهل الباطل بحكمة أصابهم في مقتل ، ويحكي لنا التاريخ عن العديد من الأباطيل التي اقتلعت من جذورها على يد العلماء .

ونكَّر لفظة (الكنز) ؛ للتعظيم من شأن ذاك الكنز المراد به العلم ، واستخدم المضارع المنفي (تخاف) ؛ للتكرار من نفي الخوف ، ونكَّر لفظة (لصا) ؛ للتفخيم من قدرة اللص ومهارته في السرقة ، وهذا يعود ببلاغته على المعنى في التأكيد على نفي الخوف على العلم من السرقة مهما بلغ السارق من مهارة وكياسة ؛ لأن العلم موطنه الصدر لا يخشى عليه من السرقة بخلاف الكنوز كافة .
وقوله :"خفيفَ الحمل " نعت للكنز موضح للمعنى ، فالكنوز تكلف الحامل مشقة في حملها بخلاف كنز العلم محله الصدر خفيف الحمل لايشق على النفوس .
وعبَّر بالمضارع (يزيد – ينقص) كسائر الأفعال المضارعة السابقة:
وتبدو بلاغة تلك الأفعال في التكرار النابع من صيغتها ، فلا يزال العلم يزيد بكثرة المدارسة ، وينقص بالبخل به ، فالأفعال المضارعة هنا أفادت التجدد في تلك المعاني ، وارتبط ذلك التجدد بتجدد اكتسابه العلم ، فكلما نهل منه كلما تجددت منافعه ، وبلاغة ذلك التجدد تكمن في تحفيز المخاطب على اكتساب العلم ، والمداومة على مدارسته ، وكأن الشاعر يقول له بطريق لطيف : لتشغل ذاتك بمدارسة العلم بدلا من الانشغال بذكر عيوب الناس وتفنيد سلبياتهم .
ووصل الشاعر بين معظم هذه الأفعال ؛ للتوسط بين الكمالين ، فجميعها جمل خبرية ، وفي الوصل ربط وتسلسل لمنافع العلم ؛ ليكون جمعها ووصلها دفعة واحدة أدعى لجذب ذهن المتلقي إلى قبول النصح .
وشبه العلم بالكنز ، فكلاهما ثروة نفيسة مع تفوق العلم بكونه خفيف الحمل ممتنعا عن السرقة يزيد بالمدارسة ، وينقص بالكتمان.
وفي قوله :" هو العضب المهند ليس ينبو[3] ... وكنز لا تخاف عليه لصا "
تشبيه متعدد قيد فيه المشبه به ؛ حيث شبه العلم أولا بالسيف حال كونه لا يخطئ ضربته يطعن به مقاتل الجهال ، وثانيا بالكنز لا يخشى عليه من السرقة .

---

[1] ينظر الإيضاح للخطيب القزويني – شرح عبد المنعم خفاجي م١٤/٦/٢ ط٣دار الجيل بيروت د.ت

[3] عَضَبَ السيف عُضوبا : صار قاطعا فهو (عَضْبٌ) /اللسان مادة (عضب)
المهند : السيف المطبوع من حديد الهند ، وكان في حينه خير الحديد/ السابق مادة (هند) .
نبا السيف عن الضريبة : لم يصبها /السابق مادة (نبو)

وتبدو بلاغة التشبيه في الإعلاء من قيمة العلم ، فليس مجرد نور يبين للفرد طريقه ، ولكنه أيضا سلاح مدافع عن صاحبه يحميه من متاهات الجهل ، ومن عته الجهال .
وفي البيت الثاني مقابلة ، فقد قابل (يزيد) بـ(ينقص) ، و(كثرة الإنفاق) بـ(كفا شددتا) ؛ ليوضح الفارق بين كنز العلم وكنز المال ، فالمال ينقص بالتصرف فيه يخشى عليه صاحبه من هذا النقصان ، بينما يزيد العلم بمنحه لغيره عن طريق المدارسة ؛ حيث يَسمَع ، ويُسمِع ، وتتبادل الآراء في مجالس العلم كل يجود بما عنده فيخرج العالم من المجلس وقد ازداد علما ، في حين أنه لو كتمه وبخل به اكتفى بعلمه لايأخذ عن غيره ولا يؤخذ عنه ، حتى ينحصر علمه ويتلاشى شيئا فشيئا .
وهو أيضا كنز لايُخشى عليه من السرقة ؛ لأن مكانه القلب والعقل ، وهما لا يُخترقان بالسرقة.

فَلَوْ قَدْ ذُقْتَ مِنْ حَلْوَاهُ طَعْما لآثَرْتَ التَّعَلُّمَ وَاجْتَهَدْتَا

(لو) حرف امتناع لامتناع[1] ؛ تبدو بلاغتها في إدخالها على الفعل الماضي المقرون بـ(قد) " لو قد ذقت ذقت "ليبالغ في تأكيد امتناع الأول ، وهو أنه لم يذق حلاوة العلم ، والذي بسببه امتنع الثاني وهو إيثاره التعلم.
واستخدم الحرف (من) ؛ وهي للتبعيض تعني (من بعض حلواه طعما) ، وبلاغة التركيب تكمن في جعل المخاطب لم يذق من العلم طعما ولو بعضه، فلم ينل منه حظا ولو كان قليلا .
ونكَّر لفظة (طعما) للتقليل مما يؤكد على المعنى ذاته ، وهوأنه لم يذق حلاوة العلم ولو بالقليل .
وفي قوله :" ذقت من حلواه طعما " استعارة تبعية مرشحة .
فقد استعار التذوق الحسي لمتعة المعرفة المعنوية بجامع الاستمتاع في كل ، والاستعارة مرشحة بلفظي (حلواه – طعما) .
والسر البلاغي للاستعارة يكمن في التقريع بالمخاطب بإبراز قيمة العلم التي تعدت باستعارة الشاعرلذة المعرفة المعنوية إلى اللذة الحسية الذوقية ، والأبلغ من ذلك هو بيان حرمان المخاطب من تلك اللذة ، فقد أدخل على الماضي المؤكد بـ(قد) (لو) التي تفيد استبعاد تحقق الفعل ، فحال الشاعر يبدو من الوهلة الأولى كأنه نصح خالص إلا إنه عند التمعن والنظر أجد أن هذا النصح يشوبه شيء من العتاب ، وشيء من التعريض ، فالشاعر يقول للمخاطب لم تذق حلاوة العلم ، ولو ذقتها لآثرت التعلم على الخوض في سير الناس والطعن فيهم ، فهو تقريع بالمخاطب من طريق خفي .

وَلَـــمْ يَشْـــغَلْكَ عَنْـــهُ هَـــوىً مُطَـــاعٌ وَلاَ دُنْيَـــــا بِزُخْرُفِهَـــــا فَتِنْتَـــــا

وَلاَ أَلْهَـــــاكَ عَنْـــــهُ أَنِيـــــقُ رَوْضٍ ولا خِـــــدرٌ برَبرَبـــــه كَلَفتَـــــا[2]

الواو عاطفة ، عطفت قوله :" لم يشغلك " على " لآثرت التعلم " ؛ لتشركهما في الحكم .
ونكَّر لفظة (الهوى) للتفخيم من قدر الهوى الذي أطاح بالمخاطب ، ووصفه بـ (المطاع)؛ ليبين انقياد المخاطب لهواه ، فقد سيطر عليه الهوى ، فجعله تابعا مطيعا أينما يوجههُ يتوجه.
ونكرَّ لفظة (دنيا) ؛ للتحقير منها والتقليل من قيمتها .
واستخدم الماضي في (فتنتا)؛ ليحقق من تلبس الرجل بفتنة الدنيا واغتراره بها حتى شغلته عن كل نافع إلى كل زخرف زائل .
وقوله (ولا ألهاك) معطوف على (لآثرت) يشترك معه في حكم الامتناع بـ(لو) ، فالرجل لم يذق حلاوة العلم لذا لم يؤثر التعلم ، وشُغِل بهوى الدنيا وزخرفها ، وانشغل عنه بروض أنيق وبربربة في الخدر كَلِف بها .
نكر لفظة (أنيق) للتفخيم من جمال الروض ؛ ليجعله أسمى وأبهى روض ومع جماله وبهجته لن يُشغل به عن العلم لو آثر التعلم والاجتهاد .

---

[1] " فسرها سيبويه بأنها حرف لما كان سيقع لوقوع غيره ، وفسرها غيره بأنها حرف امتناع لامتناع وهذه العبارة هي المشهورة والأولى أصح "/شرح ابن عقيل للقاضي بهاء الدين بن عقيل ص٢٥٢ ط٢٠ دار التراث ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م

(٢) الخِدر (بالكسر) : ستر يُمدُّ للجارية في البيت ؛ وكلُّ ما وراك من بيت ونحوه / اللسان مادة (خدر).
والرَّبرب : القطيع من بقر الوحش /السابق مادة (ربرب)

ونكَّر لفظة (خدر)؛ للتفخيم أيضا ، فهو خدر فخم يكتسب رونقه من جمال الربرب ساكنه.
وقدم قوله :" ربربه " على قوله :" كلفتا " ؛ للاهتمام بشأن المقدم ، وهو (الربرب) فهو سبب اللهو والداعي إلى الهوى ؛ إذ به الهيام والكلف ، هذا ومن جانب آخر لمراعاة الوزن والقافية ، إذ بالتأخير ينكسر الوزن وتضيع القافية .

فَقُـــوتُ الـــرُّوْحِ أَرْوَاحُ الْمَعَـــانِي وَلَـــيْسَ بِـــأَنْ طَعِمْـــتَ وَأنَ شَـــرِبْتَا

استخدم الجملة الاسمية في قوله :" فقوت الروح أرواح المعاني " ؛ ليؤكد على ثبات المعنى بأن العلوم النافعة هي قوت النفس تطيب بها القلوب ، وتسمى بها الإنسانية ، أما الأطعمة والأشربه فهي قوت للبدن يشترك فيها الإنسان والحيوان .
وقوله :" وَلَيْسَ بِأَنْ طَعِمْتَ وَأنَ شَرِبْتَا" تذييل مؤكد لمنطوق الجملة السابقة غير جار مجرى المثل ، فهو ضرب من التأكيد على قيمة العلم ، والحث على التزود منه .
وفي قوله :" أرواح المعاني " استعارة مكنية [1] .
حيث جعل لمعاني العلوم أرواحا ، وتبدو بلاغة الاستعارة في الارتقاء بالعلم ، والسمو به إلى درجة إحيائه ، ومده بأرواح رفيعة الغاية تمتد إلى قلب المتعلم والعالم تتوطن فيه ، فتزيده رفعة وسموا بقدر ما اكتسب من العلم .
وبين (الروح – أرواح) جناس اشتقاق .
يُكسب المعنى تأكيدا في الارتقاء بفوائد العلم إلى جعلها أرواحا ؛ ليرمز إلى انعدام الحياة بدونها فالجهل موت بطيء ، أضف إلى ذلك زينة اللفظ التي اكتسبها بتجاور المشتقين المفرد وجمعه .
وبين (طعمت وشربت) مراعاة للنظير.
تبدو بلاغتها في بيان الفارق بين غذاء البدن وغذاء العقول .
****

[1] إجراء الاستعارة : شبه معاني العلوم وفوائدها بكائن حي ، وحذف المشبه به ، ورمز إليه بشيء من لوازمه ، وهي الأرواح على سبيل الاستعارة المكنية .

* المبحث الثاني *

تنوع الأساليب بين الخبرية والإنشائية مدعمة بالطباق والمقابلة كسبيل للمقارنة بين معنيين – الأبيات (١٨ :٣٢).

تتنوع أساليب تلك المجموعة من الأبيات بين الخبرية والإنشائية مع تجلي بعض الصور البديعية كالطباق والمقابلة والجناس كوسيلة جوهرية لتوضيح الفارق بين العلم والجهل وما يترتب على كل منهما من آثار إيجابية أو سلبية ، يقول الشاعر :

فَوَاظِبْهُ وَخُذْ بِالْجِدِّ فِيهِ فَإِنْ أَعْطَاكَهُ اللهُ أخذْتَا

واظبه – خذ) أمران خارجان عن حقيقتهما إلى الحث والإرشاد ، تبدو بلاغتهما في إرشاد المخاطب إلى التزود من العلم النافع بالجد والمواظبة على تحصيله .

ذكر المسند إليه لفظ الجلالة في قوله :" فَإِنْ أَعْطَاكَهُ اللهُ أخذْتَا" ؛ " لأن المتكلم يحرص على أن يضيف إليه الخبر (المسند) في صورة واضحة ومؤكدة[١] " ؛ ليبين أن العلم هبة عظيمة ، ومنحة رفيعة القدر من الله العالم –جل شأنه- يكتسب بفضل الله ومنته.

وَإِنْ أوتيت فِيهِ طَوِيلَ بَاعٍ وَقَالَ النَّاسُ : إِنَّكَ قَدْ سبقْتَا

فَلاَ تَأْمَنْ سُؤَالَ اللهِ عَنْهُ بِتَوْبِيخٍ : عَلِمْتَ ؛ فَهَلْ عَمِلْتَا

وصل بين (أوتيت) و (قال الناس) ؛ للتوسط بين الكمالين ، وأكد جملة : (إِنَّكَ قَدْ سبقْتَا) بـ(إن) وأدخل (قد)على الماضي ؛ ليرفع عن الخبر أدنى شك ، ويبعده عن الإنكار ؛ ليتهيأ له إثبات دلالة جواب الشرط ، بمعنى إن بلغت في العلم مبلغا عظيما اعترف الناس بسبقك فيه ، لاتأمن مع هذا سؤال الله عنه بالتوبيخ هل عملت بما علمت .

والنهي في (لا تأمن) للإرشاد يرشده إلى ما قد يحدث له في أخراه إذا لم يعمل بما تعلم .

ونكر الشاعر لفظة (توبيخ) ؛ للتفخيم ، ليبين أن ذاك التوبيخ ليس بالأمر الهين ؛ لأنه من الخالق جلَّ شأنه .

وقوله :" علمت فهل عملت "استفهام توبيخي ، تبدو بلاغته في إرشاد الرجل إلى أن اكتساب العلم ليس للتفاخر بل للعمل به.

وبين (علمت) و (عملت) جناس القلب[٢] يضفي نغما موسيقيا تصغي له الآذان ، هذا إلى جانب الفائدة المعنوية التي تنبع من كلمتين متقاربتين في اللفظ يحملان قيما عظيمة لأصحاب الهمم العالية ألا وهما العلم والعمل .

فَرَأْسُ الْعِلْمِ تَقْوَى اللهِ حَقّاً وَلَيْسَ بِأَنْ يُقَالَ : لَقَدْ رَأَسْتَا

قوله :" فَرَأْسُ الْعِلْمِ تَقْوَى اللهِ حَقّاً"

جملة اسمية تفيد الثبوت ، تبدو بلاغتها في بيان أقوى أغراض العلم وأهدافه وهو تقوى الله ، فمن لم يرشده علمه إلى تقوى الله فما زاده علمه إلا تعاسة وشقاء في الدنيا والآخرة ، ولذا أكد المعنى بالمصدر (حقا) ، وهي مفعول لفعل محذوف تقديره (أقول حقا)[٣].

وقوله :" وليس بأن يقال لقد رأستا " تذييل مؤكد لمنطوق الجملة السابقة غير جار مجرى المثل ، وأكد قوله:" لقد رأستا " باللام وقد الداخلة على الماضي ؛ ليؤكد على نفي اختصاص ذوي الشهرة وأصحاب المكانة بالعلم ما لم يكن باطنه عامرا بتقوى الله ، فمن لم يتق الله فلا فائدة في شهرته ولا في علمه .

---

[١] خصائص التراكيب د/ محمد محمد أبو موسى ص١٨٤ ط٧ مكتبة وهبة ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م

[٢] ينظر : مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي – تحقيق/ عبد الحميد هنداوي ٦١٤/٢ ط١ المكتبة العصرية ببيروت ١٤٢٦هـ ٢٠٠٦م

[٣] (يجب حذف عامل المفعول المطلق المؤكد لغيره ؛ لتأثر الجملة بالمصدر فتصير نصا به) منقول باختصار من/ شرح ابن عقيل ص١٢٩

وجعل للعلم رأسا على سبيل الاستعارة المكنية ؛ حيث شبه العلم بإنسان ، وحذف المشبه به ، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الرأس .
والسر البلاغي للاستعارة يكمن في تشريف العلم بتشخيصه ، وجعل التقوى أشرف وأسمى غايات العلم فهي جوهره ؛ لذا جعلها رأسا له .
وبين (رأسا) و (رأست) جناس ناقص ، يوهم للوهلة الأولى اتفاق الكلمتين في المعنى ، فإذا أعدنا النظر وجدنا الفارق ، فرأس الأمر تعني عماده وأساسه ، ورأستا تعني تولي الرياسة على القوم ، فلاشك " أن التجاوب الموسيقي الصادر من الكلمات ... تطرب له الآذان ، وتهتز له أوتار القلوب ، والمجنس يقصد اختلاب الأذهان ، وخداع الأفكار ؛ حيث يوهم أنه يعرض على السامع معنى مكررا ، أو لفظا مرددا لا يجني منه السامع غير التطويل والسآمة فإذا هو يروع ويعجب ، ويأتي بمعنى مستحدث يغاير ما سبقه كل المغايرة فتأخذ السامع الدهشة لتلك المفاجأة غير المتوقعة "[1]

وضـــافي ثَوْبِـــكَ الإِحْسَـــانُ لَا أنْ تُـرَى ثَـــوْبَ الإِسَـــاءَةِ قَـــدْ لَبِسْـــتَا

الجملة إنشائية قُصِد منها الإرشاد إلى التزود من الإحسان والتقى ؛ فتلك أخلاق العلماء .
وقدَّم قوله : " ثوبك " على لفظة " الإحسان " في قوله:" وضافي ثَوْبِكَ الإِحْسَانُ " ، وقدم لفظة (ثوب) أيضا على المسند في قوله :" ثَوْبَ الإِسَاءَةِ قَدْ لَبِسْتَا " ؛ للاهتمام بشأن المقدم وهو الثوب ، ويعني به ما اشتمل عليه - يقصد نفس المخاطب - من أخلاق وسمات ، ليؤكد على ضرورة جعل الإحسان منه موفورا .
وبلاغة التقديم في الجهتين تكمن في الاهتمام بشأن المقدم من بيان إحراز النفس للإحسان ، وجعل الثوب يفيض به ؛ ليعني نفسه وهيئته وما اشتملت عليه من خلق يجب أن يكون كريما يفيض بالخير ويتحلى بصفات المحسنين ،هذا ومن جانب آخر قدَّم لمراعاة الوزن والقافية .
وبنى الفعل للمفعول في (تُرى) ؛ لتعميم الرؤية ، فمن يسوء خلقه يمقته الناس حتى يشتهر بذلك ويُرى في أعينهم كمرتدي ثوب الإساءة ، وذاك أبلغ ، ففرق بين أن يكون الرجل سيء الخلق يواري نفسه ويستره الله ، وبين أن يفضحه الله فيعلم الجميع عنه سوء الخلق فالرؤية هنا أشد وأوجع .
لذا أكد الفعل بـ(قد) ، فقال :" قد لبستا " .
وفي إضافة الإحسان إلى الثوب كناية عن نسبة ، وهي التزامه للإحسان وكونه تقيا يعرف ذاك في خلقه .
وكذا إضافة الإساءة إلى الثوب كناية عن نسبة أيضا ، ولكنها كناية عن نسبة الإساءة وسوء الخلق إليه .
والسر البلاغي للكنايتين يكمن في بيان كون حسن الخلق وسوئه وصفين يلازمان صاحبهما إلى أن يفارق الحياة فهما وصمتان ما يكاد يتصم بأحدهما حتى يلبس أن تلزمه طيلة حياته .
وبين (الإحسان) و (الإساءة) طباق تبدو بلاغته في بيان الفارق العظيم بين التباس المرء بصفة الإحسان ، وبين اتصافه بالإساءة وسوء الخلق ، هذا بالإضافة إلى زينة اللفظ التي تجلت في الكلمتين .

إِذَا مَـــا لَـــمْ يُفِـــدْكَ الْعِلْـــمُ خَيْـــراً فَخَيْـــرٌ مِنْـــهُ أَنْ لَـــوْ قَـــدْ جَهِلْتَـــا

(ما) نافية ، و (لم) أيضا نافية ، ولا يشترط أن يكون نفي النفي إثبات ؛ لأن تلك القاعدة ليست بشيء مطرد ، وذلك لأن " اللغات حين تكرر الأداة في موضع ما من الجملة إنما تهدف بذلك إلى توكيد فكرة النفي "[2] ، بدلالة المعنى ، فدلالة المعنى هنا أنه إذا انتفى حصول الخير من وراء العلم فالجهل أفضل.
إذن اجتمعت (ما ولم) في البيت لتأكيد النفي ، مع كون (لم) أقوى في الدلالة على النفي من (ما)[3]، والشاعر لا يرى الخير في الجهل ، ولكنه يحفز على الاستفادة من العلم بالعمل به ، وإلا فما الطائل من وراء علم مختزن في الذاكرة بالحفظ لا الاستيعاب ، بالشكل لا بالمضمون !
فالشاعر يقارن بين جهتين : علم لا خير فيه ، وجهل ، فيجعل الجهل أعلى مرتبة من العلم غير النافع ، وفي دعاء النبي صلى الله عليه وسلم" اللهم إنا نسألك علما نافعا[1] " و " إني أعوذ بك من علم لا ينفع[2]" .

---

[1] البديع في ضوء أساليب القرآن د/ عبد الفتاح لاشين ١٦٩ ط١ دار الفكر العربي ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م
[2] من أسرار اللغة للدكتور إبراهيم أنيس ٧٨ط١ لجنة البيان العربي ١٩٥١م
[3] ينظر: أساليب النفي في القرآن د/ أحمد ماهر البقري ص١١٢ ط١ المكتب العربي الحديث ١٩٨٩م

وبينما جعل جملة العلم بدون عمل فعلية ، جعل جملة الجهل اسمية ؛ لتكون أشد وأبلغ في التأكيد على أن الجهل أفضل من العلم بدون عمل ، فالاسمية تفيد الثبوت والدوام ، بينما تفيد الفعلية التجدد ؛ لأن الحجة على العالم غير العامل بعلمه أقوى من الحجة على الجاهل ؛ فجهله عذر له بينما لا عذر للعالم .
لذا أجده أكَّد قوله :" لو قد جهلتا بـ(قد) الداخلة على الماضي ليؤكد على المعنى السابق ، ونكَّر لفظة (خيرا) ؛ للتعظيم من الخير الذي ينتج عن العلم ، فإذا انعدم هذا الخير العظيم فلا فائدة منه .
وبين (العلم والجهل) طباق ، تبدو بلاغته في المقارنة بين جهتين مختلفتين علم بلا عمل ، وجهل ثم جعل الثاني مع كونه قبيحا أفضل من الأول ، وفي ذلك أعلى درجات التحقير للعالم الذي لا ينتفع بعلمه ولا ينفع به .

وَإِنْ أَلْقَاكَ فَهْمُكَ فِي مَهَاوٍ فَلَيْتَكَ ثُمَّ لَيْتَكَ مَا فَهِمْتَا

قيد الماضي في (ألقاك) بـ(إن) ؛ ليوضح ندرة حدوث الفعل ، فكون الشخص على دراية وفهم ثم يوقعه فهمه في مهاو ومأزق شيء نادر الحدوث ، لذا أتى بالتمني في الشطر الثاني(ليتك)؛ ليوضح أن الفهم في تلك الحالة طامة على رأس صاحبه ، مكررا (ليت)؛ " ليربط التردد بالمثير النفسي والغاية النفسية أيضا،فإن التكرير في أعلى صوره انتعاش وجداني يفيض على السامع حرارة يتحرك لها قلبه"[٣]
فالمقام مقام نصح يشوبه تخويف ؛ للإنذار مما يقتضي شحذ الهمة النفسية عند التلقي ؛ لمراجعة النفس وتوجيهها إلى ما يعود عليها بالنفع واتباع أسبابه .
وعطف (ليت) المكررة بـ(ثم) ؛ ليعطي مساحة بين الندمين ، فمن رماه علمه في منحدر ومهوى فأولى به الندم على هذا النوع من العلم يستغرق ندمه وقتا ليس بالقصير إلا أن يسقط منه على ندم آخر فهي حسرة طويلة تتبعها حسرة ، وذاك أبلغ في بيان مأزقه .
واستخدم صيغة الجمع في لفظة " مهاو " ؛ ليبين أن العلم بلا عمل مع انعدام التقوى قد يوقع صاحبه في دروب من الأباطيل ، يهوى فيها إلى قيعانها ، فإذا حدث هذا فندم ثم ندم على علمه وفهمه .
وقوله :" ألقاك فهمك في مهاو " كناية عن العي والبلادة ؛ فطبيعة الفهم الفطن أن تخرج الأنسان من المآزق ، ولكن إذا حدث العكس ؛ حيث الفهم يلقي في مهوى ، فما هو إلا فهم عديم الفطنة موفور البلادة.
وبلاغة الكناية تكمن في تقريع المخاطب ولومه من جانب خفي ؛ حيث أوقعه علمه في سب الشاعر وهجائه ، وكأن الشاعر يقول له من طريق خفي ما قادك فهمك للأمور وتقديرها إلا إلى هجائي ولم أذنب في حقك فليتك ما فهمت ولاعلمت .

سَتَجْنِي مِنْ ثِمَارِ الْعَجْزِ جَهْلاً وَتَصْغُرُ فِي الْعُيُونِ إِذَا كَبِرْتَا

استخدم الشاعر المضارع (تجني – تصغر) واصلا بين الجملتين ؛ للتوسط بين الكمالين ؛ لمزيد من النصح المتكرر ؛ حتى لا يغفله المخاطب ، فإن غفل عنه بعض الوقت عاد ، فالأفعال المتكررة المشوبة بالنصح تتردد على المخاطب ؛ لتكرر له التنبيه في جل أوقاته ، وكأن خطاب الشاعر يقول للمنصوح لا تغفل عنا نحن بصددك مؤكدا له أحد الفعلين بالسين " ستجني " ؛ ليؤكد على أن من لم يعمل بعلمه قاده العلم إلى الجهل ، ليس فقط بل سيجني عن قريب من هذا الجهل ثمارا تغص حلقه ، ومنكرا لفظة (جهل) ؛ للتعظيم من كم الجهل الذي سيغرق فيه إن لم يجتهد وينتفع بعلمه .
وفي قوله:" ستجني من ثمار العجز جهلا" استعارة مكنية ؛ فقد جعل العجز شجرة ثمارها الجهل .
والسر البلاغي للاستعارة يتضح في تقبيح تباطئ الرجل عن اكتساب العلم والعمل به ؛ فمن ركن إلى التكاسل أصبح عاجزا يجني الجهل بعجزه وتقاعسه عن اللحاق بركب العلماء .

---

[١] رواه ابن ماجة وصححه الألباني :صحيح سنن ابن ماجة /محمد ناصر الدين الألباني ١٥٣/١ ط١مكتبة المعارف- الرياض ١٤١٧هـ١٩٩٧م

[٢] صحيح مسلم للإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري – تحقيق /محمد فؤاد عبد الباقي ٢٠٨٨/٤ط٣دار إحياء التراث العربي –بيروت د.ت

[٣] التكرير بين المثير والتأثير د/ عز الدين علي السيد ص٩٢ط١ دار الطباعة المحمدية ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م

وبين (تصغر) و (كبرت) طباق ، سره البلاغي يبدو في بيان أن رفيع القدر عال الهمة يكبر في عيون الناس بعلمه وحكمته لا بماله ، فالجاهل الثري أينما رفعه ماله حطه جهله ؛ وفي ذلك تحفيز للمخاطب على السعي لاكتساب العلم بدلا من الاكتفاء بثراء المال .

وَتُفْقَدُ إِنْ جَهِلْتَ وَأَنْتَ بَاقٍ وَتُوجَدُ إِنْ عَلِمْتَ وَقد فُقِدْتَا
وَتَذْكُرُ قَوْلَتِي لَكَ بَعْدَ حِينٍ وتغبطُها إذا عنهَا شُغِلْتَا

استخدم المضارع (تفقد – توجد – تذكر – تغبط)؛ ليجعل من التكرار النابع من صيغة المضارع تذكير يتردد على قلب المخاطب يستحضر له النصح والإرشاد بصورة متكررة حتى لا يغفل .
ووصل بين الجمل المبتدأة بتلك الأفعال ؛ للتوسط بين الكمالين ، فجميعها خبرية فعلية فعلها مضارع وهو من محسنات الوصل .
وفي الوصل ربط جيد لنصائح الشاعر وتحذيراته في سلسلة واحدة تكمن في تلك القصيدة ؛ لتحفظ على مر الأزمان ، يتنبه إليها كل من قرأها وليس المخاطب بمفرده .

والواو في قوله : " وأنت باق " ، وفي قوله :" وقد فقدتا " للحال ؛ أي تُفقَد بجهلك حال كونك حيا موجودا ، وتوجد بعلمك حال كونك ميتا مفقودا .
وذكر الواو هنا من الضرورة بمكان ؛ حيث أن المعنى يحسن بها فيزداد بلاغة لا تجدها إذا حذفت ، بل إن الكلام بحذفها ينبو عن بعضه ويتنافر[1]
وبالبيت الأول منهما تشبيهان طرفاهما عقليان ؛ فقد شبه الجهل بالفقد وهو الموت ، وشبه العلم بالوجود أي الحياة ، أي أنه ميت بجهله ولو كان حيا ، وحي بعلمه ولو مات جسده ، فالتشبيه على ترك الاعتداد بالصفة كما ذكر الشيخ عبد القاهر عليه رحمة الله ، يقول الإمام :" ذلك في كل موضع كان موضوع التشبيه فيه على ترك الاعتداد بالصفة وإن كانت موجودة ؛ لخلوها مما هو ثمرتها والمقصود منها ، والذي إذا خلت منه لم تستحق الشرف والفضل ، تفسير هذا : أنك إذا وصفت الجاهل بأنه ميت ، وجعلت الجهل كأنه موت على معنى أن فائدة الحياة والمقصود منها هو العلم والإحساس ، فمتى عدمهما الحي فكأنه قد خرج من حكم الحي[2] "
وبالبيت مقابلة بين ثلاثة أشياء (تُفقد وتوجد) و (إن جهلت وإن علمت) و (أنت باق وقد فقدتا)
وبلاغة المقابلة تكمن في أنها تزيد المعاني وضوحا في الفكر ورسوخا في النفس ؛ حيث إنها توضح الفارق العظيم بين (الحاضر الغائب) بجهله ، و(الغائب الحاضر) بعلمه .

لَسَوْفَ تَعَضُّ مِنْ نَدَمٍ عَلَيْهَا وَمَا تُغْنِي النَّدَامَةُ إِنْ نَدِمْتَا

أتى الشاعر بالخبر إنكاريا فأكد جملة (لَسَوْفَ تَعَضُّ مِنْ نَدَمٍ عَلَيْها) باللام وسوف ؛ لرفع الإنكار عن المعنى المراد ، فقد يضرب المخاطب بنصح الشاعر عرض الحائط ، ولايعيره اهتماما ؛ تهاونا به ، منكرا لأمر الندم ، فأكد الشاعر على حصول الندم إذا أهمل النصح ، وقصَّر في الاعتبار .
وليؤكد على أنه سيندم حتما لا محالة في وقت لا يفيده الندم نكَّر لفظة (ندم) ؛ للتهويل من ذاك الندم ؛ تخويفا للمخاطب .
بينما عرَّف لفظة (الندامة) ؛ بـ(أل) للجنس ، ليجعل جنس الندم كله لا يغني عن المخاطب شيئا إذا لم يعتبر بالنصح تهويلا من كم الندم الذي سيقع على عاتقه ، ولن ينفعه شيئا .
وذيل البيت بقوله :" وما تغني الندامة إن ندمتا "

---

[1] يتحدث الشيخ عبد القاهر–رحمه الله- عن واو الحال قائلا :" حَسُن أن تقول :" جاءني زيد والسيف على كتفه " و " خرج والتاج عليه " ، فتجده لا يحسن إلا بالواو ، وتعلم أنك لو قلت :" " جاءني زيد السيف على كتفه " و " خرج التاج عليه " كان كلاما نافرا لا يكاد يقع في الاستعمال ./ دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني – تعليق / محمود محمد شاكر ص٢٢١ ط٣مطبعة المدني بجدة ١٤١٣هـ ١٩٩٢م

[2] أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني– تعليق محمود محمد شاكر ص٧٤ ط ١دار المدني بجدة ١٤١٢هـ ١٩٩١م

وهو تذييل جار مجرى المثل، الغرض منه حث المخاطب على الانتباه إلى نصح الشاعر هذا من جانب ، ومن جانب آخر توبيخه على عدم العمل بعلمه ، فلو كان الرجل عاملا بعلمه لما هجا الشاعر وتناول سيرته بالسوء ، فهو توبيخ خفي مستتر في طيات ثوب النصح ، هدفه تقريع السامع ورده عن غفلته .
وهي كناية عن الحسرة ، وفي الذكر الحكيم :" ويوم يعض الظالم على يديه " [1]
وبالبيت أخذ من القرآن الكريم ، من قوله تعالى : " ويوم يعض الظالم على يديه " على طريق العقد ؛ حيث لم يقتبسه بنص الآية ، وإنما تصرف في اللفظ على طريقة العقد.
وفي الأخذ من القرآن تشريف للمعنى ، وسمو به ؛ حيث يتمثل بكلام الله تعالى ، مما يجعل الترهيب أشد ، ويمنحه عنصر القوة للتلقي والاستجابة .
وبين (الندم – ندامة – ندمتا) جناس اشتقاق .
تبدو بلاغته في التركيز على مشتقات لفظ (الندم) كعامل نفسي للتخويف يزرع الرهبة في قلب المخاطب بالتخويف من الندم في المستقبل إذا أصر على فعله ، وخلَّف النصح وراء ظهره.

إِذَا أَبْصَرْتَ صَحْبَكَ فِي سَمَاءٍ قَدِ ارْتَفَعُوا عَلَيْكَ وَقَدْ سَفُلْتَا

قيد الماضي (أبصر) بـ(إذا) ؛ للقطع بوقوع الشرط ؛ وهو ما جعله يدخل حرف التحقيق (قد) على الماضي في (ارتفعوا) ؛ لمزيد من التأكيد على سبق أصحابه ، مما يعود على الرجل بالذم الخفي بين ثنايا السطور ، فقد تحقق أن رأى أصحابه قد ارتفعوا عليه ؛ لذا وجب عليه النظر ، ومراجعة النفس ؛ لمعرفة علة ذلك ، وتحاشيها ؛ لمحاولة اللحاق بركب الصحاب في العلم ، ونكَّر لفظة (السماء) ؛ للتعظيم إشارة إلى رفعة المكانة التي احتلها أصحابه بتقوى الله والعلم ؛ مما يزرع في نفسه الندم على التهاون في اللحاق بركب الصحاب .
وقوله :" صَحْبَكَ فِي سَمَاءٍ "
كناية عن علو المنزلة ورفعة الشأن ، وهو تعبير يحفز به المخاطب إلى النظر والاعتبار ، والبحث عن أسباب رفعتهم .
وبين (ارتفعوا – سفلتا) طباق يوضح البون الواسع بين منزلة أصحابه العالية ، ومنزلته المتواضعة إذا استمر على الجهل ، وفضَّل جمع المال على التعلم والاجتهاد ، مما يزرع في قلبه الخوف من الوصول إلى هذه المنزلة المتدنية .

فَرَاجِعْهَا وَدَعْ عَنْكَ الْهُوَيْنَى[٢] فَمَا بِالْبُطْءِ تُدْرِكُ مَا طَلَبْتَا

هنا يستخدم الشاعر فعل الأمر كضرب من التنويع في الأساليب قائلا :" راجعها ودع " ، وهما أمران الغرض منهما تحفيز المخاطب على مراجعة النفس ؛ لترك ما يشينها .
تبدو بلاغتهما في توجيه اللوم الخفي ، وكأنه يذكره قائلا شغلت نفسك بتفنيد عيوبي وتتبع خصالي حتى تأخرت عن ركب العلماء وتباطأت عن أخلاقهم ، فلتشغل حالك بما يبعدك عما يشينك ويرفعك منزلة ، ولتكن جادا في طلبه .
قوله :" فما بالبطء تدرك ما طلبتا " تذييل مؤكد لقوله :" دع عنك الهوينى "
تبدو بلاغته في حث الرجل على النشاط والهمة في اتباع درب الحق ومسالك العلماء ، وترك التكاسل الذي سيجعله في ذيل الصفوف متأخرا مزريا .
و (ما) في قوله :" ما طلبتا " موصول أتى به ؛ للتفخيم ، تبدو بلاغة استخدا مه في بيان عظم المطالب التي يضعها الإنسان لنفسه ، فما منا إلا وينبغي لنفسه الأماني من العلو بالعلم أو المال أو الجاه ، أو غير ذلك ، وإذا كان ذاك مطلب البشر في دنياهم ، ومطلبك أيضا أيها المخاطب ، فما يدرك ذاك المطلب بالتباطئ والكسل ، ولكن يدرك بالجد والعمل .

وَلاَ تَحفَلْ بِمَالِكَ وَالْهُ عَنْهُ فَلَيْسَ الْمَالُ إِلاَّ مَا عَلِمْتَا

---

[1] سورة الفرقان آية ٢٧
(٢) الهوينى : التؤدة والرفق والسكينة والوقار/ اللسان مادة (هون).

ينتقل الشاعر من أسلوب الأمر في البيت السابق إلى أسلوب النهي في هذا البيت قائلا :" لا تحفل بمالك " ، والنهي للإرشاد[1] ، يرشده ألا يجعل ماله شغله الشاغل ؛ فهناك من المطالب ما هو أعلى قدرا منه ؛ لذا يتبع الأمر بالنهي قائلا :" واله عنه " ؛ تأكيدا لإرشاده .
ووصل بين الجملتين ؛ للتوسط بين الكمالين ، فهما إنشائيتان لفظا ومعنى ، وفي الوصل بينهما مزيد من تقوية الغرض المراد منهما .
وقوله :" فليس المال إلا ما علمتا "إشارة إلى قول الله تعالى :" واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة "[2]
وفي ذلك دلالة خفية على أن الرجل عالم مطلع على الدين إلا إنه قليل العمل بما يعلم .
وبالجملة أسلوب قصر ، قصر فيه المال على ما علمه عند المخاطب من أنه فتنة لا ينفع صاحبه أمام الله إلا بما تصدق منه ، أو اكتسب به أجرا في الآخرة .
وفي القصر تحقير لقيمة المال أمام العلم ، وحث للمخاطب على ترك التعلق به والشغف بجمعه .
وقصر بالنفي والاستثناء مع علم الرجل بأن المال فتنة ؛ إلا إن الشاعر يؤكد على المعنى ، ليخرج المخاطب مخرج الجاهل الذي لا يعلم ؛ لما ظهر عليه من أمارات الجهل والتجاهل ؛ حيث انشغل بماله عما هو أنفع له .

وَلَـــيْسَ لِجَاهِـــلٍ فِـــي النَّـــاسِ مغْنـــى وَلَـــو مُلْـــكُ الْعِـــرَاقِ لَـــهُ تَـــأَتَّى

نكر لفظة (جاهل) ؛ للتحقير من شأنه ، فما أقبح الجهل وأعماه ، وقدَّم لفظة (ملك) على الفعل (تأتى) ؛ للمبالغة في بيان انعدام قيمة الجاهل في الدنيا ولو بلغ من نفوذه أن ملك العراق بأسره ، هذا ومن جانب آخر قدم لمراعاة الوزن والقافية .
وقال (تأتى) بزنة (تفعل) ، ولم يقل (أتى) ؛ لأن التأتي هو إتيان الشيء على لين ورفق ، وإتيانه على وجهه وكما يجب أن يكون[3] .
وتبدو بلاغة اختيار الوزن في بيان انعدام قيمة الجاهل ولو تأتى له ملك العراق بسهولة ويسر ، وانحنت له الممالك تحت قدميه ؛ لأن بجهله لن تخلو نظرة الناس إليه من التحقير والإزراء .
وخص العراق دون سائر البلدان ؛ لسعة ملكه ورفعته إلى جانب أنه البلد الذي وازى حكم الأندلس في المشرق ، وكان منه أوائل حكامهم كـ (عبد الرحمن الداخل) الذي يرجع نسبه إلى بني أمية بالعراق ، وكان هناك نطاق واسع من التأثير والتأثر بين العراق والأندلس ، فكان محط الأنظار آنذاك .

****

[1] ينظر : بغية الإيضاح / عبد المتعال الصعيدي م٢٧٢/٢/١ ط١٧ مكتبة الآداب ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م
[2] سورة الأنفال آية ٢٨
[3] تأتى : ترفق للأمر ، وأتاه من وجهه / اللسان مادة (أتي)

* المبحث الثالث *

الإكثار من الجمل الخبرية مع إضاءة المعنى بالصورة البيانية – الأبيات (٣٣-٥٠)

بعدما نوَّع الشاعر في الأبيات السابقة بين الأساليب الخبرية والإنشائية مقارنا بين العلم والجهل ، ووضح ما يترتب عليهما من أوصاف متضادة أبرزها عن طريق الطباق والمقابلة كالفهم والعي ، وعلو المقام وصغره ، والإحسان والإساءة وغيرها من الأوصاف المتقابلة المترتبة على العلم والجهل ، عاد في هذه الأبيات إلى الجمل الخبرية كسابق عهده في بداية القصيدة موضحا قيمة العلم ، مضيئا النص ببعض الصور البيانية التي تخدم المعنى وتقربه إلى الأذهان ، يقول الشاعر:

سَـــيَنْطِقُ عَنْـــكَ عِلْمُـــكَ فِـــي نَـــدِيٍّ وَيُكْتَـــبُ عَنْـــكَ يَوْمـــاً إِنْ كَتَبْتَـــا

أكد الفعل (ينطق) بالسين ؛ ليؤكد على قيمة العلم التي ترفع من شأن صاحبه ، فتجده ينطق على لسانه في المجالس ، ففارق عظيم بين مجلس عالم يسعى الناس إليه ربما من شتى البقاع يجلونه بالاحترام والوقار ، وبين مجلس جاهل لا ينالهم منه إلا الإسفاف وعظم الذنوب .

ونكَّر لفظة (ندي) ؛ للتعظيم من قيمة الجالس والمجلس ، فالندي هو محل اجتماع القوم ، فإذا كان المجلس عظيم القدر يشهده العلماء ، ثم أبان العلم عن صاحبه في ذاك المجلس فهذا دليل على رفعة العالم وصحبته ، ومحل اجتماعهم ، فالعلم يعلن عن صاحبه أينما ذهب .

ووصل بين (سينطق) و (ويكتب) ؛ للتوسط بين الكمالين ، فمجالس العلماء يحضرها الكتبة يدونون عنهم علمهم .

وفي قوله :" سينطق عنك علمك " استعارة مكنية[1] .

تبدو بلاغتها في تجسيد العلم في صورة الحي الناطق ؛ نقلا له من حيز المدركات المعنوية إلى حيز المدركات الحسية ؛ ليكون ذلك أبلغ في استيعاب المعنى ، وحقا ما إن تسمع عالما متمكنا من علمه قد رُزِق الحكمة والبيان إلا وترى نفسك أمام علم يكشف النقاب عن نفسه يثير الدهشة والغبطة ، والرجاء في نيل تلك المنزلة الرفيعة .

وَمَا يُغْنِيكَ تَشْيِيدُ الْمَبَانِي إِذَا بِالْجَهْلِ نَفْسَكَ قَدْ هَدَمْتَا

وصل الشاعر بين جملة (وَمَا يُغْنِيكَ تَشْيِيدُ الْمَبَانِي) في هذا البيت ، والجملتين في البيت السابق ؛ للتوسط بين الكمالين ، فجميعها خبرية فعلية .

وفي الوصل بيان لرفيع قيمة العلم ، وأنها لا تعدلها قيمة ولو كانت الغنى وتشييد المباني والقصور العامرة .

واستخدم المصدر (تشييد) ؛ ليبالغ في بيان ثبوت البشر ومنهم المخاطب على حالهم من الاهتمام بجمع المال وبناء الجمادات شغفا بملذات الدنيا وتمسكا بها .

وأتى بقوله: " قد هدمتا " ؛ مؤكدا بـ(قد) ؛ للرد على الشاك أو المتردد في تفضيل العلم على المال ، مقويا الحكم بأن من انشغل بماله عن العلم فقد هدم ذاته ، لأنه إذا شغل عمره ببناء البيوت والقصور ، تاركا نفسه لجهلها ، فقد بنى الجماد وهدم نفسه ؛ لحرمانها من غذاء الروح .

وشبه النفس ببناء وحذف المشبه به ، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الهدم على سبيل الاستعارة المكنية ؛ ليحث المخاطب على الاهتمام بتقويم نفسه وبنائها بالعلم والتقوى.

وبين (تشييد –هدمتا) طباق :

يوضح الفارق العظيم بين البناء والهدم ، وبالأخص إذا كان البناء للرخيص الفاني ، والهدم للنفيس الباقي.

جَعَلْتَ المَالَ فَوْقَ الْعِلْمِ جَهْلاً لَعَمْرُكَ فِي الْقَضِيَّةِ مَا عَدَلْتَا
وَبَيْنَهُمَا بِنَصِّ الْوَحْيِ بَوْنٌ سَتَعْلَمُهُ إِذَا " طَهَ " قَرَأْتَا

هنا يوجه الشاعر للمخاطب شيئا من التعنيف مستخدما الماضي في (جعلت) تحقيقا للجعل ؛ حيث جعل المال في المنزلة الأولى وأعلاه شأنا عن العلم،حتى لم يشغل العلم حيزا من حياته ، وفي ذاك قمة الجهل.

---

[1] إجراء الاستعارة : شبه العلم بإنسان ناطق ، وحذف المشبه به ، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو النطق على سبيل الاستعارة المكنية .

ونكَّر لفظة (الجهل) ؛ للتفخيم من كم الجهل المتصف به من أعلى المال عن العلم قدرا ، فمن فعل ذلك فهو كثير الجهل شديد العمى .
ولهذا أكد جملة (لَعَمْرُكَ فِي الْقَضِيَّةِ مَا عَدَلْتَا) بالقسم ، وهو من التذييل غير الجاري مجرى المثل ؛ حيث تؤكد هذه الجملة على منطوق الجملة السابقة .
وفي التأكيد تقوية للحكم المراد بتفضيل العلم ، وردع للمخاطب عن الاعتقاد بخلاف ذلك .
ونكر كلمة (بون) ؛ للتعظيم من قدر البون الشاسع بين منزلة العلم ، والجهل .
والواو في :" وبينهما بنص الوحي " للحال ؛ أي جعلت المال فوق العلم حال كون الفارق بينهما كبيرا .
وقدم الجار والمجرور " بنص الوحي " على " بون " ليؤكد على أن نظرة الشاعر لارتفاع قيمة العلم على المال نظرة صائبة وهي حق بنص الوحي .
وأدخل (السين) على قوله :" ستعلمه " ؛ ليؤكد على وجود دليل على كلامه من كتاب الله تعالى ليس فقط بل حدد موضعه وأنه في سورة طه يريد قول الله تعالى:"وقل ربي زدني علما[1]"،فلم يقل زدني مالا .

لَـــئِنْ رَفَـــعَ الْغَنِـــيُّ لِـــوَاءَ مَـــالٍ لأَنْـــتَ لِـــوَاءَ عِلْمِـــكَ قَـــدْ رَفَعْتَـــا

لَـــئِنْ جَلَـــسَ الْغَنِـــيُّ عَلَـــى الْحَشَـــايَا لأَنْـــتَ عَلَـــى الكَوَاكِـــبِ قَـــدْ جَلَسْـــتَا

وَإِنْ رَكِـــبَ الْجِيَـــادَ مُسَـــوَّمَاتٍ لأَنْـــتَ مَنَـــاهِجَ التَّقْـــوَى رَكِبْتَـــا

يقارن الشاعر في الأبيات الثلاثة بين حالين : حال صاحب المال وحال صاحب العلم مستخدما الفعل الماضي ؛ ليحقق وقوع تلك الأفعال ، فإن تحقق أن تباهى الغني بماله فرفع لواءه ، وجلس على أفخر الحشايا وأبهاها ، وامتطى الجياد المسومات ، إن تحقق هذا في جانب الغني ، فإن ميزان العالم يثقل عنه رافعا قدره جالسا على الكواكب متبعا مناهج التقوى وسبلها .
واختص من الجياد المسومات ؛ أي المعلمات ؛ لأن تلك علمها صاحبها بعلامة تميزها ؛ لمهارتها ، مما يعود على المعنى بتفضيل صاحب العلم على صاحب المال ، وإن امتلك وامتطى من الخيل أفضلها .
وأرى الشاعر في مقارنته هذه يستخدم الجمل الفعلية في جانب صاحب المال ، بينما يستخدم الاسمية في جانب صاحب العلم ، يقول في جانب صاحب المال :

(لئن رفع الغني لواء مال – لَئِنْ جَلَسَ الْغَنِيُّ عَلَى الْحَشَايا- وَإِنْ رَكِبَ الْجِيَادَ مُسَوَّمَاتٍ).

ويقول في جانب صاحب العلم :

(لأنت لواء علمك قد رفعتا - لأَنْتَ عَلَى الكَوَاكِبِ قَدْ جَلَسْتَا- لأَنْتَ مَنَاهِجَ التَّقْوَى رَكِبْتَا)

فارق في الاستخدام ؛ لأن الاسمية تفيد الثبوت والدوام وذاك أبلغ في بيان رفعة لواء العلم عن لواء المال ، ورفيع منزلة العالم كأنه جلس على الكواكب لا على الحشايا كجلوس صاحب المال ، وركوب العالم مناهج التقوى لا مجرد خيل في متناول الجميع ، فتعبيره بالاسمية أفاد ثبوتا لمعان رفيعة تخص العالم ، على حين أن تعبيره بالماضي المقيد بـ(إن) يفيد ندرة حدوث الفعل في حصول تلك المعاني التي ليست بالمنزلة ذاتها التي اختص بها العلم .
والشاعر في كل هذا يزين الجمل الخبرية بالصورة البيانية التي تضيئ المعنى ، فجعل لكل من العلم والمال لواء كناية عن التفاخر والسعادة ، فصاحب المال يتفاخر به ، وصاحب العلم يسعد بعلمه يرفع لواءه ؛ لينهل غيره من علمه .
وجعل صاحب العلم يجلس على الكواكب كناية عن علو المنزلة ، وجعله يركب مناهج التقوى كناية عن التزامه بأوامر المولى – جلَّ شأنه – ونواهيه ، واتباعه سبل النجاة .
وتبدو بلاغة تلك الكنايات في بيان الفارق بين العالم والغني الجاهل ، وتفضيل الأول على الثاني ، وبيان ارتفاع قدره ، وعلو منزلته علوا لا يرتقي إليه جاهل ولو ملك الدنيا بأسرها .

وَمَهْمَا افْتَضَّ أَبْكَارَ الْغَوَانِي فَكَمْ بِكْرٍ مِنَ الحِكَمِ افْتَضَضْتَا ؟

---

[1] سورة طه جزء آية١١٤

(كم) للتكثير، تبدو بلاغتها في الترغيب والحث على سلك دروب العلم الذي به تفتح أبواب الحكم ، فيحوز بذلك قصب السبق في ساحة أولي النهى كما يحوزها مفتض الأبكار مع الفارق ، فكم من الرجال تجول في ساحات الغواني يقتطف زهورهن ، ولكن القليل من تفوه بالحكم ، فانحنت له الجباه تقديرا لفطنته .
و (أل) في لفظة (الغواني) للجنس ، يعني بها جنس الغانيات عن الزينة المصطنعة بطبيعة جمالهن .
واختص (الغواني) بالذكر ؛ لأن شغف النفس بهن أشد ، وولع القلب بهن أبلغ .
ونكَّر لفظة (بِكر) ؛ للتفخيم من شأن تلك البكر المقصود بها الحكمة ، ولتكثير عددها العائد بالتكثير على عدد الحكم التي افترعها العالم بعلمه ، وتولدت من حكمته ، كل هذا يعود على المقارنة بترجيح ميزان العالم على ميزان الغني الجاهل ، والتحفيز على النهل من نبع العلم بدلا من الانكباب على جمع الأموال .

وفي البيت تشبيه ضمني يضئ المعنى ؛ بنقل المعنوي إلى الحسي[1]؛ حيث شبه الحكمة الضالة التي يهتدي إليها الحكيم بفطنته ، شبهها بالبكر ، ووجه الشبه : السبق والانفراد بها ، فواجد الحكمة قائلها هو أول من يهتدي إليها بذكائه يسبق غيره وينفرد بها ، ومفتض البكر هو أول زائر وأسبق قرين .
وسر بلاغة التشبيه تكمن في بيان أن متعة تحصيل العلم لدرجة الاهتداء إلى الحكمة هي مرتبة رفيعة لا يصل إليها إلا القليل تعلو عن المتع الدنيوية الحسية ؛ لأن تلك متعة روحانية تدوم ؛ لتغذي النفس وترفعها عن الدنايا ، وهذه متعة جسدية تزول بزوال وقتها ، وتنقضي بانقضاء ساعتها .
وبين (بكر – أبكار) و (افتض – افتضتا) جناس اشتقاق.
يضفي على البيت نغما موسيقيا ذا مسمع رنان ، وهو إلى جانب ذلك يوضح التفاوت بين شقي الموازنة مرجحا أحد الطرفين على الآخر .

وَلَـــيْسَ يَضُـــرُّكَ الإِقْتَـــارُ شَـــيْئاً إِذَا مَـــا أَنْـــتَ رَبَّـــكَ قَدْ عَرَفْتَـــا

استخدم المضارع المنفي (ليس يضرك) ؛ للدلالة على تجدد المعنى المستمد من الفعل المنفي ألا وهو نفي الضرر في وقته الحالي مستمرا إلى مستقبله .
وتبدو بلاغته في بيان أنه متى كان فقيرا لن يضره فقره مهما عاش في قلة ذات يده ما دام قد عرف الله ، وتمسك بتعاليمه ، فالفقر وقتها يصطبغ بصبغة من الرضا والقبول التي تجعل من الحمد والشكر لباسا يرتديه الفقير ينال به رضا الله وعفوه ويدخل به في زمرة المتوكلين على الخالق حق توكله ، فيرزقهم الله كما يرزق الطير .
ونكر لفظة (شيئا) ؛ للتقليل من حجم الضرر العائد من وراء فقر المال مع الارتباط بالنفي المتقدم في قوله :" ليس يضرك " مما يؤكد على نفي الضرر عن من عرف الله حق المعرفة.
وذكر الضمير (أنت) ، ولم يقل :" ربك قد عرفتا " ؛ لمزيد من التقوية والتأكيد على أن من اتقى الله حق تقاته فلن يضره فقر ولا غيره .

وأتبعه بالماضي المقرون بـ(قد) في (قد عرفتا) ، لبيان تحقق الفعل والتأكيد عليه .
وسره البلاغي يبدو في تنبيه الرجل إلى أن معرفته بالله شرط ، وأن تكون حق المعرفة عن يقين وإيمان بصدق لا بظاهر القلب .

فَمَاذَا عِنْدَهُ لَكَ مِنْ جَمِيلٍ إِذَا بِفِنَاءِ طَاعَتِهِ أَنَخْتَا

تأتي الجملة الإنشائية على استحياء بين هذا الكم من الجمل الخبرية ، وهي جملة استفهامية غرضها التعجب ، وفيها تعظيم لقيمة الجميل ، ويعني به الأجر والثواب إذا التزم طاعة الله .
وتبدو بلاغته في شحذ همة المخاطب ، وتوجيه عقله وإدراكه إلى ثواب الآخرة ؛ ليتفكر فيما أعده الله لعباده الصالحين ، وما وعدهم به ؛ ليسلك دربهم ، ويلتزم نهجهم .

[1] ينظر: قطوف من البيان والأدب / أ.د- فريد محمد بدوي النكلاوي ص٣٦ ط١ عالم الغد ١٤١٨هـ ١٩٩٧م

واختصه بالخطاب ، فقال :" ماذا عنده لك " مع أن الثواب للصالحين أجمعين لا للمخاطب على وجه الخصوص ، ولكنه خاطبه موجها له الكلام ، وكأنه اختُص بالثواب دون غيره ؛ ليجعل من خطابه هذا دافع نفسي يحفزه على الطاعة ، وليدرك رحمة الخالق وعظيم محبته لعباده المتقين ، فمن اتقى الله حق تقاته ذاق حلاوة الإيمان ، وشعر بمحبة الرحمن له ، فلفرط حبه لله يرى وكأن الله جل شأنه قد اختصه بالمحبة أو زاد له منها .

ونكَّر لفظة (جميل) ؛ للتعظيم من قيمة ذلك الجميل الذي أعده الله لعباده الصالحين ، وهي صفة لموصوف محذوف تقديره (أجر جميل) ، أو ثواب جميل .

وقدَّم الجار والمجرور (بفناء طاعته) على الفعل في (أنختا) ؛ لرفع قيمة المكان ، وهي ساحة الطاعة والاهتمام بشأنها ، فبالتزامها ينال الأجر والثواب لا بمجرد الإناخة .

وبالبيت تشبيه ضمني :

شبه الثبوت على الطاعة بالإناخة في المكان بجامع الالتزام في كل وعدم التحول .

وتبدو بلاغة التشبيه في نصح الرجل لا لطاعة الله فقط ولكن للمداومة عليها والتشبث بها ، وعدم التحول عنها إلى غيرها كما أن المناخ يكون مستقرا لمن أناخ فيه ، وتنبيهه إلى أنه إذا التزم هذا نال من جزاء الله منالا يسعده ويحوز به سعادة الدارين .

فَقَابِلْ بِالْقَبُولِ صحيح نُصحي فَإِنْ أَعْرَضْتَ عَنْهُ فَقَدْ خَسِرْتَا

الأمر في (فقابل) للنصح والإرشاد ، وعطف بالفاء ؛ لسرعة التعقيب ، فقد نصحه في البيت السابق إلى التزام الطاعة ، وهنا يأمره بقبول النصح .

وتبدو بلاغة العطف بها في اقتضاب الفترة الزمنية الكامنة بين النصح وقبوله ؛ حتى لا يدع له مجالا للتفكير في قبول النصح ، فقد نصحه بما يعود عليه بالخير الأعظم ، وكأنه يقول له نصحتك فاقبل .

لذا وصف نصحه بالـ(صحيح) وقدمه على لفظة (النصح) ؛ اهتماما بشأنه ، فقد وقع نصحه من الصحة بمكان يقتضي القبول دون أدنى تفكير .

وقيَّد الفعل الماضي في (أعرضت) بـ(إن) ؛ ليشكك في نسبة الحدوث فيجعلها نسبة قليلة ؛ لأن مثل هذا النصح الذي يدعو إلى التقوى والعلم والبحث عما يعود عليه بالخير مثل هذا يقتضي القبول لا الإعراض ، فإن أعرض فذاك لعيب في المنصوح لا الناصح .

ولهذا ولشك من الشاعر في نسبة قبول المخاطب للنصح عَدل عن استخدام الفعل المضارع إلى الماضي في قوله :" وإن أعرضت " ؛ ليخرجه مخرج الواقع الحادث ، والأصل (وإن تُعرض) ؛ لأنه لا يزال في مقام النصح ، ولكن لشعور دفين في قلب الشاعر بحال المخاطب وهو أنه ربما لن يتقبل نصحه بسهولة ويسر أخرج الفعل هذا المخرج .

وقيد الماضي في (فقد خسرتا) بـ(قد) ؛ للتأكيد على تحقق الخسران حال الإعراض عن هذا النصح .

وبين لفظتي (قابل – القبول) جناس اشتقاق تبدو بلاغته في ترديد الألفاظ ذات النغمات المتجانسة التي يحلو سماعها ، وتتقبل الأذن تكرارها ، وهو إلى جانب تلك الزينة اللفظية يصل بالمعنى إلى سرعة قبول النصح ؛ حيث لصق المقابلة بالقبول ؛ ليعني أنه بمجرد سماعه الخطاب يفترض عليه أن يقابله بالقبول المطلق .

وَإِنْ رَاعَيْتَهُ قَوْلاً وَفِعْلاً وَتَاجَرْتَ الإِلَهَ بِهِ رَبِحْتَا

(وإن راعيته) معطوف على (وإن أعرضت) ؛ للتوسط بين الكمالين ، غرضه توضيح الطرف الآخر من الموازنة ، فالنصيحة تقابل بأحد أمرين إما الإعراض وإما القبول .

واستخدم الماضي في (راعيته) ، ولم يقل (تراعيها) مع أنه في مجال عرض النصيحة في الحاضر : أولا؛ ليتوافق مع اللفظ السابق (وإن أعرضت) ، وثانيا ؛ ليخرج ما يرغب في حدوثه في المستقبل وهو قبول النصح مخرج الحاصل تحقيقا للقبول وللمراعاة أملا منه في ذلك .

وقوله:"قولا وفعلا"من التتميم؛حيث جاءت " فضلة في كلام لا يوهم خلاف المقصود لنكتة بلاغية " [1]

[1] ينظر: عروس الأفراح لبهاء الدين السبكي تحقيق / عبد الحميد هنداوي ٦١٤/١ ط١ المكتبة العصرية –

وتبدو بلاغة التتميم في المبالغة في بيان ضرورة مراعاة النصح قولا وفعلا ؛ ليؤكد على أن قبوله لابد أن يكون بالعمل به لا بمجرد سماعه والموافقة عليه قولا ، فموافقة العمل للقول من الضرورة بمكان .
" وتاجرت الإله به " احتراس عن أن يكون عمله للرياء والسمعة ، وتأكيدا له على ضرورة العمل به خالصا لوجه الله .
واستخدم الماضي في (تاجرت) ؛ تحقيقا لوقوع التجارة ، واختار له من الأوزان (فَاعَل) الذي يقتضي المشاركة ؛ ليوضح أنها مرابحة مع الله هذا بعمله والمولى العظيم جلَّ شأنه بثوابه ومكافأته ، فهي مرابحة مع العظيم الجليل الذي لا يضيع أجر عامل من ذكر أو أنثى.
وفي قوله :" وتاجرت الإله " استعارة تبعية.[1]
تبدو بلاغتها في اختصاص لفظ (التجارة) بما يحمله من معان تدل على الرغبة في النجاح والحرص عليه ، والخشية من الكساد أو الخسارة ، فالتاجر يفعل كل ما أمكنه فعله لينمي تجارته ويجعل ربحها في ازدياد ، وكذا المتاجر مع الله يسعى لثواب الله ويخشى عقابه ، فإخراج الثواب المرجو في الآخرة مخرج الربح الحسي الحاصل في الدنيا تمكين للصورة البيانية وتحفيز على فعل المذكور فيها .
وقوله :" إن أعرضت " في السابق ، و " وإن راعيته " في هذا البيت من حسن التقسيم ؛ حيث استوفى أقسام الشيء بالذكر ، فعرض النصيحة يتبعه إما مراعاة لها ، وإما إعراض عنها ولا ثالث .
وتبدو بلاغة التقسيم في اتباع ذكر النصيحة بذكر نتائجها المترتبة عليها فهي إما قبول يترتب عليه ربح الدارين ، وإما إعراض يترتب عليه خسران وذلة .
وبين هذا البيت وسابقه مقابلة ، قابل فيها المراعاة بالإعراض ، والربح بالخسارة ؛ ليعرض أمام المخاطب طريقين مختلفين كل منهما يفضي به إلى وجهة مختلفة إحداهما خير والأخرى شر ، وعلى المخاطب التدبر وحسن الاختيار .

فَلَيْسَتْ هَذِهِ الدُّنْيَا بِشَيْءٍ تَسُوؤُكَ حِقْبَةً[2] وَتَسُرُّ وَقْتَا

أشار إلى الدنيا بـ(هذه) وذكرها يكفي ، ولكنه أشار فقال :" هذه الدنيا " ؛ تحقيرا لها وإقلالا من شأنها ، ولذا أتبعها بالنكرة (شيء) ؛ للتحقير والتقليل من قدرها ، فلا تساوي عند الله جناح بعوضة .
وبين قوله :" تسوؤك – تسر " طباق .
يبدو سره البلاغي في ربطه باللفظ الدال على الزمن (حقبة – وقتا) ؛ حيث جعل الإساءة لـ(الحقبة)، وهي المدة الطويلة من الدهر منكرا إياها للتفخيم ، بينما جعل المسرة (وقتا) أي فترة قليلة ، منكرا إياها ؛ للتقليل والتحقير ، فهي لا تعدو إلا أن تكون فترة وجيزة من الوقت ؛ ليوضح أن أوقات المرء إما فرح أو حزن ، وأوقات الحزن أكثر وأطول فحزن على فقدان حبيب ، أو على مرض وفاقة ، أو خسارة وفقر ، وغيرها كثير ، أما أوقات السعادة فقليلة وأيام الفرح معدودة تتيه في تعب الحياة ومشقتها ؛ لذا وجب عليه ألا يتعلق بالدنيا ويشتد أمله فيها ، وأن يتذكر السعادة في جانب الرحمن .
وقوله :" تسوؤك حقبة وتسر وقتا "مجاز عقلي علاقته الزمانية .
فالدنيا وعاء زمني تمر فيه الحقبة والأوقات ، وليست هي فاعل الإساءة أو الحسرة ، ولكنه أسندهما إليها ؛ لتفاعل الإنسان معها واحتوائها على الأحداث التي يتعرض لها في حياته ، وشهرتها بنسبة ذلك إليها هذا من جانب ، ومن جانب آخر تنزيها للمولى – جلَّ شأنه – عن نسبة وقوع أحداث الحزن والإساءة منه إلى البشر .

وَغَايَتُهَا إِذَا فَكَّرْتَ فِيهَا كَفَيْئِكَ أَوْ كَحُلْمِكَ إِنْ حَلَمْتَا

الضمير في (غايتها – فيها) عائد على الدنيا ، وقيَّد الماضي في (فكرت) بـ(إذا) ؛ ليغلب نسبة حدوث الفعل ، فالتفكير في الدنيا هو الشغل الشاغل لدى جل البشر .

صيدا بيروت ١٤٢٣هـ ٢٠٠٣م

[1] استعار التجارة وهي طلب الربح لطلب الأجر والثواب ، واشتق منها (تاجرت) على سبيل الاستعارة التبعية في الفعل .

[2] الحقبة:المدة الطويلة من الدهر،وفي القرآن:" لا أبرح حتى أبلغ محمع البحرين أو أمضي حقبا"/اللسان مادة(حقب)

وفي البيت تشبيه تمثيلي : شبه هيئة غاية الدنيا ومداها عند تمعن النظر فيها بهيئة ظل الإنسان لا يعدو إلا أن يمتد أمامه ثم يتلاشى، وبهيئة الحلم ما يلبث إلا بضع دقائق ويفيق منه الإنسان كأنه لم يكن .
والوجه : هيئة مكونة من شيء قليل القيمة قصير المدى بمجرد مضيه أضحى كأنه لم يوجد .
وتبدو بلاغة التشبيه في انتقاء الألفاظ المؤثرة في المعنى ، حيث لم يصف الدنيا عموما ، ولكنه وصف أدق ما يرجوه الإنسان منها وهو (غايتها) ؛ أي فائدتها القصوى ، والطلب المرجو الذي يتكالب عليه البشر ، ثم في جعل تلك الغاية وهي أقصى فائدة مرجوة كمجرد ظل الإنسان ما يلبث إذا انبسط في وقت إلا وينحسر ثم يتلاشى في وقت آخر ، أو كحلم سعد به الإنسان لبضع دقائق ثم أفاق منه فلم يجد شيئا ، ثم في تقييد الفعل الدال على الحلم بـ(إن) في قوله :" إن حلمتا " تقليل لحدوث الفعل ، وكأنه يستنكر عليه مجرد الحلم الهنيء الذي يسعد به ، فغاية الدنيا في نظر الشاعر كمجرد حلم إن حَلِمَ .

سُـــجِنْتَ بِهَـــا وَأَنْـــتَ لَهَـــا مُحِـــبٌّ فَكَيْـــفَ تُحِـــبُّ مَـــا فِيـــهِ سُـــجِنْتَا ؟

استخدم الفعل الماضي في (سُجنت) ؛ ليحقق وقوع الحبس للبشر في سجن الدنيا ، وبناه للمفعول ؛ تنزيها للفاعل عن ذكر اللسان .
والواو في قوله :" وأنت لها محب " واو الحال ، والجملة حالية ، يعني سجنت بها حال كونك محبا لها ، وفيه دلالة على شغف الناس بالدنيا وتعلق قلوبهم بها رغم كونها حبسا وقيدا لهم عن جمال ما أعده الله لعباده المتقين في الآخرة ، وفيه دلالة على التزام تلك الحالة من البشر ؛ إذ هم ملازمون لحب الدنيا ، والاكتراث لأمرها ، ونسيان أمر الآخرة .
وقوله :" فكيف تحب " استفهام تعجبي .
يعجب الشاعر من حال المخاطب كيف يهوى قيده في الدنيا ، واستخدم الموصول (ما) ؛ للتحقير من شأن الدنيا ، فليست سوى سجن للمؤمن عن جنة الآخرة بينما هي جنة للكافر عن جحيم الآخرة .
وذكر اللفظين (سُجنت – سجنتا) من الإطناب بالتكرار .
تبدو بلاغته في التأكيد على كون الدنيا سجنا للمؤمن تقيد حريته عن النهل من الشهوات والمحرمات ، يحبس فيها نفسه ؛ حبا لله ، والتزاما لأوامره ، واجتنابا لنواهيه ، هذا بالإضافة إلى تنبيه العقل إلى فكرة السجن التي عبر بها الشاعر وتمكينها في ذهنه ؛ ترهيبا له عن التعلق بشهوات الدنيا .
وفي قوله :" سجنت بها " استعارة تبعية[1] .
وتبدو بلاغة الاستعارة في التهوين من قيمة الدنيا والتقليل من شأنها ؛ ليوضح أنها ليست سوى قيد يلزمه الإنسان إلى أن توافيه منيته فتنطلق روحه إلى ساحة الحرية .
وبالبيت اقتباس من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم :" الدنيا سجن المؤمن جنة الكافر[2]" وفي الاقتباس من السنة تمكين لدلالة المعنى ، وربطه بمرجعية قوية ؛ ليكون أولى بالقبول.

وَتُطْعِمُكَ الطَّعَامَ وَعَنْ قَرِيبٍ سَتَطْعَمُ مِنْكَ مَا منهَا طَعِمْتَا

الضمير في (تطعمك) عائد على الدنيا ، واستخدم المضارع (تطعم) ؛ ليدل على التجدد في الفعل ، فتناول الطعام من خيرات الأرض في ظل العيش في الدنيا أمر متجدد يتكرر يوميا .
و(أل) في (الطعام) للجنس ، أي جنس الطعام المأكول .
(قريب) صفة لموصوف محذوف تقديره (عن وقت قريب) ، حذفه ؛ للاختصار ، ولوضوح المراد بالصفة .
ونكَّر الصفة ؛ للتقليل من المدة ، فالدنيا بأسرها تجري كساعات فما حال عمر الإنسان بها ! ولذا أدخل (السين) على المضارع ، فقال :" ستطعم " ؛ لتدل على المستقبل القريب العاجل ، وليكون ذلك أدعى لتنبيه المخاطب إلى أن عمره مهما طال في الدنيا فهو قصير محدود.
واستخدم الموصول (ما) ؛ لزيادة التقرير ؛ ليوضح للمخاطب أن ما طعمه في الدنيا في حياته كلها ، وغذى به جسده ستأكله الأرض بعد مماته .
وأثبت الإطعام للدنيا في قوله :" وتطعمك الطعام " على سبيل المجاز العقلي ، وعلاقته الزمانية ،

---

[1] استعار تقييد الحرية في السجن لتقييد المؤمن بأوامر الشرع ونواهيه بجامع التزام جوانب محددة في كل ، واشتق من السجن (سجنت) على سبيل الاستعارة التبعية في الفعل .
٢.صحيح مسلم ٢٢٧٢/٤

فالدنيا بأيامها وعاء زمني يدور في فلكه الإنسان لفترة محدودة هي عمر مكتوب له .
وتبدو بلاغة المجاز في بيان دور الزمان في حياة الإنسان ، فما هو إلا ناقل وسيط يسير فيه العبد ينقله من الحياة القصيرة المحدودة إلى الحياة الأبدية ، وفيه يتغذى ويبلغ أشده ويستوي ثم يصير شيخا كأنه الطفل ، فدور الزمان في الحياة وإمدادها بالطعام واللباس بأمر الله ، أما دور العبد ففي تفعيل ذلك الزمان وحسن استغلال تلك الساعات في التزود للآخرة ، وإلا فما ناله من الدنيا إلا لقمة طعمها ، ولبسة ستر بها جسده ثم خرج منها عاريا .
وفي قوله :" ستطعم منك ما منها طعمتا " مجاز عقلي في أحد طرفيه مجاز .
فالأرض هي التي تأكل جسد الإنسان بعد موته لا الدنيا بأسرها ، ولكنه أثبت الإطعام للدنيا على سبيل المجاز العقلي ، وعلاقته الزمانية ؛ حيث يحدث ذلك بمرور الزمان .
وأحد طرفي الإسناد مجاز ، فقد شبه تحليل الأرض لجسد الإنسان بعد موته بالإطعام على سبيل الاستعارة التبعية .
وتبدو بلاغة المجاز في بيان أن الزمان يأخذ من الإنسان ما يمنحه إياه ، فما طعام الزمان وشرابه إلا وسيلة للحياة ؛ لينبه المخاطب ألا يخلط بين الوسيلة والغاية ، فالطعام والشراب في الدنيا وسيلة لا غاية كما يُمنَح يُؤخَذ ، ولا يبقى سوى العمل الصالح .
وبين (تطعمك – تطعم – الطعام – طعمتا) جناس اشتقاق .
تبدو بلاغته في توضيح علاقة الأخذ بعد العطاء ؛ ليوضح قدر الدنيا الحقيقي ، ومنزلتها التي يجب أن تُوضع فيها ، وهي أنها دانية من الدنو لا قيمة لها ولا وزن .

وَتَعْـــرَى إِنْ لَبِسْـــتَ لهَـــا ثِيَابـــاً وَتُكْسَـــى إِنْ مَلاَبِسَـــهَا خَلَعْتَـــا

استخدم المضارع (تعرى – تكسى) ؛ ليدلل على التجدد في تلك الأفعال ، فكلما تجدد تَمسُك الإنسان بالدنيا وزخرفها كلما تجدد عريه ، وكلما افتقر إلى ما يستره في الآخرة ، وعلى النقيض كلما تجدد تخلي الإنسان عن ملذاتها ومتعها الزائلة كلما تجددت كسوته بثياب من التقى تغنيه في أخراه .
ونكَّر كلمة (ثيابا) ؛ للتحقير من ثياب الدنيا والتقليل من قدرها وقدر من اكتسى بها .
وفي البيت استعارتان تبعيتان في (تعرى – تكسى):
استعار العُري للافتقار للحسنات بجامع الاحتياج في كل، واستعار الكساء للاستغناء بالحسنات بجامع الستر في كل ، وبلاغة الاستعارتين تكمن في بيان الفارق بين من تمسك بزخرف الدنيا وضاع عمره في اللهث وراء شهواتها ، ومن تجرد من شهواتها وتنكر لها .
وبالبيت أسلوب المقابلة ؛ حيث قابل بين (تعرى وتكسى) و (لبست وخلعتا) .
ليؤكد على خيبة الأمل والخسران العظيم لمن غفل عن آخرته ولم يستعد لها ، ففرق جليل بين من يستره الله يوم القيامة ، فيكسيه بثياب القبول والمحبة والغفران ، وبين من يفضحه الله ويخزيه .

وَتَشْـــهَدُ كُـــلَّ يَـــوْمٍ دَفْـــنَ خِـــلٍّ كَأَنَّـــكَ لاَ تُـــرَادُ بِمَـــا شَـــهِدْتَا

استخدم المضارع (تشهد) ؛ ليوضح تكرار حدوث الفعل ؛ مما يعود على المعنى ببيان أن الدنيا رحلة تنتهي بالفناء يشهد فيها المرء وفاة أخلائه واحدا تلو الآخر إلى أن يأتي اليوم الذي يشهد فيه أخلاؤه دفنه .
ونكَّر لفظة (خل) ؛ لتعظيم قيمة ذاك الخل لدى المخاطب ، ومع هذا القدر يموت الخل ويشهد خليله دفنه كغيره من البشر فلا يمتنع من البشر أحد وإن علا قدره أو عظم جاهه .

"كَأَنَّكَ لاَ تُرَادُ بِمَا شَهِدْتَا"

(كأن) للتقريب ، وهو أسلوب تعجب ، يعجب فيه الشاعر من حال المخاطب وانغماسه في اللهو وعدم الاعتبار بفناء أخلائه أمام عينه ، مع أن تلك المشاهد تنبهه إلى حتمية الموت ولكن لا اعتبار.
واختص (الخِل) دون (الصديق) ؛ لأن الخِل هو " المحب الذي ليس في محبته خلل"[1] ، فهو أبلغ في الوفاء والمحبة من مجرد صديق .

****

[1] ينظر: اللسان مادة (خلل).

* المبحث الرابع *
الأمر والنهي وأثرهما في إضاءة المعنى – الأبيات (٥١ :٦١)

بعدما حشد الشاعر الكثير من الجمل الخبرية ، ونوع أحيانا باستخدامه بعض الأساليب الإنشائية ، أجده يكثر في هذا الجزء من الأمر والنهي كأسلوب إنشائي هادف يستخدمه كأداة مباشرة لإرشاد المخاطب على طريقة (افعل ولا تفعل) ، طريقة ناصح واثق من نصحه يقف على أرض صلبه يوجه الخطاب بطريق واضح دون أدنى التواءات ، فأجده يقول :"َجِدَّ لِمَا خُلِقْتَا - َزِدْهَا أَنْتَ هَدْماً - َحَصِّنْ أَمْرَ دِينِكَ - َلاَ تَحْزَنْ عَلَى مَا فَاتَ - َلاَ تَضْحَكْ مَعَ السُّفَهَاء- َسَلْ مِنْ رَبِّكَ التَّوْفِيقَ - َأَخْلِصْ فِي السُّؤَالِ - َنَادِ إِذَا سَجَدْتَ لَهُ - َلاَزِمْ بَابَهُ قَرْعاً - َأَكْثِرْ ذِكْرَهُ فِي الأَرْضِ - َلاَ تَقُلِ الصِّبَا فِيهِ مجالٌ - َفَكِّرْ كَمْ صَغِيرٍ قَدْ دَفَنْتَا- َقُلْ لي يَا نَصِيح "

فمعظم الأبيات في هذا الجزء من القصيدة يتراوح بين أمر أو نهي غرضه نصح وإرشاد أو تخويف وتحذير ، يقول الشاعر:

وَلَـــمْ تُخْلَـــقْ لِتَعْمُرَهَـــا وَلٰكِـــنْ لِتَعْبُرَهَـــا فَجِـــدَّ لِمَـــا خُلِقْتَـــا

وصل الشاعر بين قوله :" ولم تُخلق لتعمرها " ، والجمل السابقة (سجنت بها ... ، وتطعمك الطعام ...، وتعرى ... ، وتشهد ....) ؛ للتوسط بين الكمالين ، فجميعها خبرية ، وفي الوصل ربط جيد للمعاني التي تتوالى في يسر وتتشابك ؛ لتكون وحدة عضوية من النصح والإرشاد .

وقوله :" جد لما خلقتا " أسلوب إنشائي أمري يراد منه النصح والتوجيه ، حتى لا يغتر المخاطب بالدنيا ، وحتى لا ينسى أنها رحلة عبور إلى الآخرة .

وفي قوله :" تعبرها " استعارة مكنية[١]؛ حيث جعل الدنيا جسرا ، وتظهر بلاغة الاستعارة في تنبيه الرجل إلى حسن استغلال رحلة الحياة فيما يجدي في أخراه نفعا ، وتذكيره بأنه في الدنيا كعابر سبيل يأخذ منها زاده إلى الآخرة ثم يتركها ويرحل .

وبين (تعمرها – تعبرها) جناس مضارع حيث (اختلف اللفظان في حرف واحد متقارب المخرج[٢])

وتبدو بلاغة الجناس في بيان الهدف الحقيقي من الحياة ، وهو حسن استخدامها كجسر للعبور إلى الآخرة مع تعهد ذلك الجسر وإصلاحه بما ينفعه في الانتقال ، وما عدا ذلك فهو فان لا قدر له ولا قيمة ، وهو في ذلك يستخدم لفظتين متجانستين ما إن تمرا على السمع حتى تظلا عالقة به يتدبرها العقل فيتمكن إدراكها ، فالجناس يثير الإعجاب من نواح عديدة كالتقارب في الصورة ، ومن " ناحية الجرس الموسيقي ، وناحية التآلف والتخالف بين ركنيه لفظا ومعنى ، وناحية ما يحويه كل ركن من المعنى الأصلي [٣]".

وَإِنْ هُدِمَتْ فَزِدْهَا أَنْتَ هَدْماً وَحَصِّنْ أَمْرَ دِينِكَ مَا اسْتَطَعْتَا

في قوله :" زدها أنت هدما – حصن أمر دينك " أمران أريد منهما النصح والإرشاد إلى تعمير آخرته ولو على حساب دنياه ، ولا يقصد الشاعر ببيته هذا تخريب الدنيا ولا أن يعيث فيها فسادا ، ولكن يرشده إلى عدم الركون إلى الدنيا والاغترار بمبانيها وزخرفها الزائل ، وأنه متى وجب عليه الاختيار بين الأمرين إما بناء دنياه وتعميرها ، أو بناء آخرته وجب عليه الاختيار الثاني .

وفي قوله :" زدها هدما " استعارة مكنية[٤] ؛ حيث جعل الدنيا بناء يصح فيه الهدم .

وتبدو بلاغة الاستعارة في تحقير أمر الدنيا والاستهانة بها فهي عند الشاعر ليست سوى جسر للعبور ؛ لذا وجب على المؤمن إعلاء بناء آخرته في سبيل النجاة ، فإن بنى للدنيا وتزود منها ونسي أمر الآخرة فما اكتسب خيرا .

---

[١] إجراء الاستعارة : شبه الدنيا بجسر ، وحذف المشبه به ، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو العبور على سبيل الاستعارة المكنية .

[٢] ينظر مواهب الفتاح ٦١٢/٢

[٣] فن الجناس/ علي الجندي ص٣٠ ط١ دار الفكر العربي ١٩٥٤م

[٤] شبه الدنيا ببناء وحذف المشبه به ، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الهدم على سبيل الاستعارة المكنية .

وبين (الهدم والتحصين) طباق معنوي ؛ حيث المقابلة بين الشيء وضده في المعنى لا في اللفظ[1] ، فالهدم يقابله البناء ، والتحصين ما هو إلا بناء منيع يُتحصن به .

وَلاَ تَحْزَنْ عَلَى مَا فَاتَ مِنْهَا إِذَا مَا أَنْتَ فِي أُخْرَاكَ فُزْتَا
فَلَيْسَ بِنَافِعٍ مَا نِلْتَ فِيْها مِنَ الْفَانِي إِذَا الْبَاقِي حُرِمْتَا

النهي للإرشاد ، يوضح للمخاطب أنه إن أبقى دنياه على حساب آخرته فقد أبقى على الفاني ، وحُرِم من الخير الدائم الباقي .

واستخدم الماضي في (فزتا – حرمتا) ؛ ليجعل الفوزمؤكد مقطوع به ، وكذا ليجعل الحرمان من الخير واقع وكأنه حدث بالفعل ؛ لفساد نظرته وتفضيل الفاني على الباقي .

واستخدم الموصول (ما) في قوله :" ما نلت فيها " ؛ للتفخيم من القدر المنال من متع الدنيا .

وسره البلاغي يكمن في بيان أن هذا القدر العظيم الذي ناله من خير الدنيا مهما بلغ من العظم مبلغه ليس بنافع صاحبه ؛ لأنه متاع زائل .

وبين (الفاني – الباقي) طباق تدور بلاغته في إظهار الضد حسن الضد ، فإذا كانت رحلة الحياة فناء ، ودار الآخرة بقاء ، فلابد من ترك الفاني في سبيل السعي وراء الباقي وتعميره .

وَلاَ تَضْحَكْ مَعَ السُّفَهَاءِ لهوا فَإِنْكَ سَوْفَ تَبْكِي إِنْ ضَحِكْتَا
وَكيف لَكَ السُّرُور وَأَنْتَ رَهْنٌ وَلا تَدْرِي أَتُفْدَى أَمْ غلِقْتَا ؟

ينهاه عن عدم الاستهانة قائلا :" وَلاَ تَضْحَكْ مَعَ السُّفَهَاءِ لهواً " ، والنهي للتحذير إرشادا .

وبلاغة الأسلوب الإنشائي تبدو في تخير ألفاظ التركيب حيث انتقى لفظة (السفهاء) بدلا من الأصدقاء أو الأخلاء ؛ تنبيها له أن من اعتقد فيهم الصداقة والوفاء وشاركوه لهوه وضحكه استخفافا ما هم إلا سفهاء قليلوا الحلم والنُهى ، ولو كانوا أخلاء أوفياء ذوي عقول واعية ما تمادوا في الحياة ضحكا ولعبا ، بل تنبهوا لأنفسهم ، ونبهوا أخوانهم ، ولكن شيئا لم يكن فما هم إلا سفهاء .

ولذا أجده يؤكد الشطر الثاني الذي يدور معناه حول الندم قائلا :" فَإِنْكَ سَوْفَ تَبْكِي إِنْ ضَحِكْتَا " أكده بـ(إن) و (سوف) ؛ لأن الخبر إنكاري ، فمن انغمس في اللهو والضحك لعبا واستغرق حياته في هذا فإنه مستدرج من الصعب عليه أن يتخيل أن تلك السعادة الزائفة ستنقلب حزنا مريرا أملا منه في طول الحياة ونسيانا لأمر الموت ؛ لذا أكد له الشاعر الجملة ؛ ليوقظه من ثباته العميق .

وبين (تضحك – تبكي) طباق ؛ يوضح تحول الحال من السرور الزائف إلى الحزن الآكد .

ثم يستفهم الشاعر عجبا من سروره وما زال عالقا لا يدري أغفر له ذنبه أم عَلِق بذنبه قائلا :" وَكيف لَكَ السُّرُور وَأَنْتَ رَهْنٌ" فالاستفهام تعجبي ، والواو في قوله :" وأنت رهن " للحال ، أي كيف تكون بتلك السعادة وحالك في الآخرة مرهون بأعمالك في الدنيا إن خيرا فخيرا وإن شرا فشرا .

والجملة من التشبيه التمثيلي ؛ حيث شبه حاله في الدنيا المرتبط بأعماله من الطاعة والعصيان وارتهان كل حال منهما بالجزاء في الآخرة ، بحال الرهن إما أن يُفدى ، أو يعلق لعدم السداد .

وسر بلاغة التشبيه تظهر في تنبيه كل الغافلين ليس المخاطب فقط ، فربما لم يكن المخاطب بذاك السوء ، وهذا ما سيظهر في الأبيات القادمة ، وربما اتخذ الشاعر من (أبي بكر المخاطب بالقصيدة) رمزا لكل من غفل عن أمر الآخرة وسعى وراء شهواته ، وعلى كل الأحوال سيبقى خطاب الشاعر وتوجيهاته مثلا يحتذى به على مر العصور صالح لكل الأجيال.

ثم ينتقل الشاعر من النهي إلى الأمر قائلا :"َسَلْ مِنْ رَبِّكَ التَّوْفِيقَ – أخلص في السؤال – ناد إذا سجدت – لازم بابه قرعا – أكثر ذكره في الأرض)

والأمر إرشادي ، يرشده إلى أهمية الدعاء ، وضرورة الإخلاص فيه ، والحث على الدعاء في السجود ؛ فهو الأقرب للقبول ، وضرورة اللجوء إلى الله ، والإكثار من ذكر اسم الله تعالى عسى يكون ذاك بابا من الرحمة ونفحات من الرضا تشمله فتغير حاله وتشمله بالرضا وتهدي إليه سعادة الدارين .

وقوله :" لازم بابه " كناية عن التزام طاعة الله والمداومة على الدعاء والتقرب إلى الله عزَّ وجل .

وقوله :" سيفتح بابه " كناية عن قبول الله لعبده وشموله بالرحمة والرضا .

والكنايتان توضحان ضرورة اللجوء إلى المولى تعالى شأنه بكثرة الدعاء والاستغفار فهو من خير الأعمال .

---

[1] ينظر: البديع في ضوء أساليب القرآن د / عبد الفتاح لاشين ص٢٨

وقوله :" بما ناداه ذو النون بن متى "
تلميح[1] وإشارة إلى قصة ذي النون عليه السلام ؛ حيث نادى في الظلمات قائلا :" لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين " ، وبلاغة التلميح تبدو في إرشاد المخاطب إلى أحد الأدعية المقبولة بإذن المولى جلَّ شأنه ، واسترشادا في النصح بالذكر الحكيم ؛ ليكون النصح أولى بالقبول .
وقول الشاعر :" لتذكر في السماء إذا ذكرتا " من العقد ؛ حيث نظم من معاني القرآن مقتبسا ومغيرا في اللفظ ، فقد عقدها من قول الله تعالى :" فاذكروني أذكركم "[2]
والامتثال بالقرآن الكريم اقتباسا وعقدا يضفي على القول رونق البلاغة ، وحتمية القبول في مقام النصح والإرشاد خاصة ، فالشاعر ينصح بالخير مدعما نصحه بإشارة أو عقد أو اقتباس من آيات الذكر الحكيم حتى لا يرفضه رافض .

وَلاَ تَقُـــلِ الصِّـــبَا فِيـــهِ مجـــالٌ		**وَفَكِّـــرْ كَـــمْ صَـــغِيرٍ قَـــدْ دَفَنْتَـــا**

النهي للإرشاد ، ينهى الشاعر المخاطب عن التعلق بالدنيا أملا في طول العمر ، آمرا إياه بالتفكير في عدد حديثي السن ممن دفنهم أو شهد دفنهم على مر حياته .
والغرض من الأمر التنبيه والإرشاد إلى شيء ربما غاب عن فكره .
و(كم) خبرية غرضها التكثير من العدد ، لذا أكد الماضي (دفن) بـ(قد) قائلا :" كم صغير قد دفنتا " ؛ ليؤكد على تحقيق وقوع الفعل مع الكثرة .
وهو من حسن التعليل ؛ حيث أعطى الشاعر لقطع الأمل على المخاطب بطول العمر علة مناسبة ، وهي أن الموت لا يختص بكبير السن بل قد يأتي للشاب والطفل من ذي قبل ممن هو أكبر منه سنا ؛ لينحى بالخطاب منحى الترهيب ، فالشاعر يراوح في خطابه بين اللين والشدة ، ساعة يلين لجذب المخاطب واستمالته ، وساعة يرهب ويحذر بلهجة شديدة ؛ ليقذف بغفلة المخاطب وتهاونه عرض الحائط فيدمغها .

****

[1] التلميح : أن يشار إلى قصة أو شعر من غير ذكره /تلخيص المفتاح ص٩٢
[2] سورة البقرة جزء آية ١٥٢

* المبحث الخامس *

المضارع المنفي بـ(لم) ، ودوره في الموازنة بين حال الشاعر وحال المخاطب – الأبيات (٦٢ :٧٢).

يقارن الشاعر في هذه الأبيات بين حاله وحال المخاطب الذي طعن في الشاعر وتناوله بالهجاء ، موضحا ما للمخاطب من خصال ذميمة تستحق منه النظر للإصلاح ، لا تركها والخوض في سير غيره ، وبالمقارنة بين ما لنفسه من أخلاق حميدة ، وعلى النقيض ما للمخاطب من خصال ينأى عنها الشاعر ، استخدم في المقارنة الفعل المضارع المنفي بـ(لم) يواجهه المسند إليه مقترنا بالفعل الماضي المثبت على طريقة (لم أفعل كذا وأنت فعلت) ، مع تدعيم التراكيب ببعض الصور البيانية التي تحلق بالمعنى في سماء الخيال ، إلى جانب تناغم الألفاظ بمحسن الطباق الذي إلى جانب كونه يزين اللفظ يؤثر تأثيرا دقيقا في بيان الفارق بين الحالين ، يقول الشاعر:

وَقُــلْ لــي يَــا نَصِــيح لأَنْــتَ أَوْلَــى بِنُصْــحِكَ لَــوْ بِعَقْلِــكَ قَــدْ نَظَرْتَــا

(قل) معطوفة على قوله السابق :" لا تقل الصبا فيه مجال " ، وبلاغته تبدو في حسن الربط بين الأفكار ، فقد أحسن الربط بين الفكرة السابقة التي نهى فيها الشاعر عن التمادي في المعاصي أملا في طول الحياة بقوله :" لا تقل الصبا فيه مجال " وبين تلك الفكرة التي يقارن فيها بين حاله وحال المخاطب بقوله :" قل " ، وهو من طباق الإيجاب والسلب المحمل بعنصر المفاجأة ، فقد أكثر الشاعر من النصح في أبياته السابقة خاتما ما سبق بقوله :" لا تقل الصبا فيه مجال " ، ثم قطع سلسلة النصح المتوالية وفاجأه بتفنيد سلبياته على طريقة :(قل لي تفعل كذا ، وحالك كذا وكذا) بضرب من المقارنة تجعل الرجل يخجل من أفعاله .

والأمر في قوله :" قل لي " للسخرية والاستهزاء ؛ حيث يسخر الشاعر ممن هجاه وذمه في حين أنه مفعم بالذنوب ، به من العيوب ما يكفيه للاهتمام بإصلاح نفسه .

وناداه بالبعيد (يا) ؛ لبعده عن طريق الصواب ، وقدَّم الجار والمجرور (بعقلك) على الماضي (نظرت) ، والأصل (لو قد نظرت بعقلك) ؛ للاهتمام بشأن المقدم وهو التدبر بالعقل .

والسر البلاغي للتقديم يبدو في بيان أن الرجل بهجائه للشاعر يعتبر ناقص العقل ضعيف الإدراك ، فلو تدبر بعقله ، واعتبر بحاله وحال الشاعر لرأى أنه من يستحق الهجاء لا الشاعر .

ولذا قيد الماضي (نظرت) بـ(لو) ، وأدخل عليه (قد) ؛ ليفيد استبعاد وقوع الفعل ، أي استبعاد النظر والتدبر من المخاطب ، فلو كان صاحب عقل وتمييز لنظر لنفسه وأصلح شأنه أولا .

تُقَطِّعُنِــــي عَلَــــى التَّفْــــرِيطِ لَوْمــــاً وَبِــــالتَّفْرِيطِ دَهْــــرَكَ قَــــدْ قَطَعْتَــــا

استخدم المضارع في (تقطعني) ؛ ليوضح تكرار حدوث الفعل ، مما يدل على أن المخاطب كان يكرر من لومه للشاعر ، ووصمه بالتفريط .

وفي استخدامه للفظة (التقطيع) بما تعنيه من فصل الأجزاء دليل على أن لوم الرجل للشاعر لم يكن عن عتاب ومودة ، ولكن عن هجاء وتقذيع .

وقدَّم الجار والمجرور (بالتفريط) على الفعل (قطعت) ، والأصل (وقد قطعت دهرك بالتفريط) ؛ لتقوية الحكم وتأكيده بأنه قضى حياته مفرطا في جنب الله ؛ ليوضح أنه من يستحق اللوم لا الشاعر .

ولهذا قدَّم لفظة (دهرك) على (قد قطعتا) ؛ لتفيد الشمول ، بمعنى أنه استغرق حياته كلها غارقا في اللهو بعيدا عن فعل الخير ، فالتقديم أبلغ من قوله: (قطعت دهرك).

وبين قوله :(تقطعني – قطعت) جناس اشتقاق ، فاللفظان يعودان إلى الأصل (قطع) مع اختلاف في المعنى ، فقوله :" تقطعني " بمعنى تلومني ، و" قطعت " بمعنى أمضيت .

وسر بلاغة الجناس يبدو في تلك الدهشة التي تعقب سماع اللفظ الثاني ؛ حيث يبدو متمكنا في موضعه لاتبغي به بديلا ، فقد " أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها ، ويوهمك أنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفاها "[1]

---

[1] الأسرار ص٤-٥

وَفِـــي صِـــغَرِي تُخَـــوِّفنِي الْمَنَايَـــا وَمَـــا تجْـــرِي بِبَالِـــكَ حـــيْن شِـــخْتَا

وَكُنْـــتَ مَـــعَ الصِّـــبَا أهْـــدَى سَـــبِيلاً فمَـــا لَـــكَ بَعْـــدَ شَـــيْبِكَ قـــدْ نَكَسْـــتَا

وَهَـــا أنـــاَ لَـــمْ أخَـــضْ بَحْـــرَ الْخَطايَـــا كَمَـــا قـــدْ خَضْـــتَهُ حَتّـــى غرِقتَـــا

قدَّم الجار والمجرور (في صغري) على المسند (تُخَوف) ؛ لتقوية الحكم ؛ ليؤكد على أن المخاطب ذمَّ الشاعر مخوفا إياه بقدوم الموت رغم صغر سنه على حين أن المخاطب لم يخشاها ، وفيه دليل على أن المدعو (أبا بكر) الذي ذمَّ الشاعر كان يكبره سنا .

وقوله :" فما لك بعد شيبك قد نكستا " استفهام تعجبي ، يعجب الشاعر من حال المخاطب كان شابا حسن الخلق مهتدي السبيل ، ولكن حاله انعكس بعد كبره وخاب سعيه .

وسر بلاغة الاستفهام تكمن في تنبيه الرجل إلى ما هو عليه من السوء ؛ ليقوِّم من حاله هذا ومن جانب آخر ؛ ليتجنب هجاء غيره ممن هو أهدى منه سبيلا .

وفارق الشاعر في التعبير ، فاستخدم الجملة الاسمية المنفية في جانبه قائلا :" أنا لم أخض بحر الخطايا " ، بينما استخدم الفعلية وفعلها ماض مقرون بـ(قد) في جانب المخاطب قائلا :"قد خضته حتى غرقتا".

والسر البلاغي لتلك المفارقة ؛هو جعل نفي المعنى ثابت الدوام في جانب الشاعر ، وإثبات المعنى محقق واقع بالفعل في جانب المخاطب ، فالشاعر لم يخض بحر الخطايا أبدا وثبت حاله على ذلك ، أما المخاطب فقد خاضه بالفعل تحقق وقوع ذلك منه دون أدنى شك ، ليس هذا فقط بل أمعن في خوض بحر الخطايا حتى كانت غايته الغرق في الذنوب والمعاصي .

وقوله"بحر الخطايا"من التشبيه البليغ؛"حيث حذف الوجه والأداة وهو من أعلى مراتب التشبيه[1]"، فقد شبه الخطايا بالبحر في الوفرة والعظم ، وفي قوله :" لم أخض بحر الخطايا " استعارة تبعية[2] .

والسر البلاغي للصورة في هذا البيت هو بيان الفارق الكبير بين أخلاق الشاعر والمخاطب ، فببيان عِظم الذنوب التي وقع فيها المخاطب وتجنبها الشاعر بحسن خلقه وفضائل أعماله يتضح الفارق بينهما .

وبين (صغري – شختا) و (الصبا – شيبك) طباق يوضح فارق العمر بين الشاعر والمخاطب ، فالمخاطب شيخ لا يعتبر بقدوم الموت إلا بتخويف غيره في حين يغرق هو في شهواته .

وفي قوله : (لم أخض – خضت) طباق السلب .

تبدو بلاغته في إفاقة المخاطب من غفلته العميقة ؛ حيث ترك نفسه لشهواتها رادعا غيره وناسيا نفسه ، فأتى له الشاعر بهذا الطباق ليضع مرآة ناصعة أمام عينيه يرى فيها حاله لعله يعتبر .

وَ لَمْ أَشْرَبْ حمُ ـَيَّا أُمِّ دَفْرٍ وَأَنْتَ شَرِبْتَهَا حَتَّى سَكِرْتَا

وَ لَمْ أَحْلُلْ بِوَادٍ فِيهِ ظُلْمٌ وَأَنْتَ حَلَلْتَ فِيهِ وَانْهملْتَا

وَ لَمْ أَنْشَأْ بِعَصْرٍ فِيهِ نَفْعٌ وَأَنْتَ نَشَأْتَ فِيهِ وَمَا انْتَفَعْتَا

يتابع الشاعر المقارنة بينه والمخاطَب على طريقة (لم أفعل وأنت فعلت) ، فوصل بين الجمل (لم أشرب – لم أحلل – لم أنشأ) وبين قوله السابق :" لم أخض بحر الخطايا " ؛للتوسط بين الكمالين ، فجميع الجمل خبرية منفية ، وفي الوصل تعداد لسلسلة الأفعال المنفية عن خصال الشاعر البعيدة عن أخلاقه.

ويسير الشاعر في مقارنته في الأبيات الثلاثة على درب واحد ، وهو استخدام الجملة الفعلية ذات المضارع المنفي في جانبه قائلا :" لم أشرب – لم أحلل – لم أنشأ " ، والجملة الاسمية المثبتة في جانب المخاطب قائلا :" أنت شربت – أنت حللت – أنت نشأت " ؛ ليفيد تجدد نفي حدوث الفعل في جانبه ، وإثبات حدوث الفعل والمداومة عليه في جانب المخاطب ، ففي جانب الشاعر وهو رجل لايقحم نفسه في زحام المعاصي ، ولا يحلل بواد فيه ظلم ، حتى نشأته لم تكن في ظل علماء كبار ينتفع منهم ومع ذلك آثر العلم واجتهد بنفسه ، فالسر البلاغي للنفي المتكرر يكمن في بيان عدم اقترابه من المحرمات

---

[1] رشف النبيه من ثغر التشبيه للشيخ ابن أبي عصرون الكنجي –دراسة د/ فريد محمد بدوي النكلاوي ص٦٧ ط١ ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م

[2] إجراء الاستعارة التبعية : استعار الخوض لارتكاب الذنوب بجامع الدخول في كل والتلبس به ، ثم اشتق من الخوض (أخض – خُضت) على سبيل الاستعارة التبعية في الفعل .

والمعاصي في ماضيه وحاضره ، ولن يفعل ذلك في مستقبله ، فكلما مرَّ به الزمان كلما تكرر إباؤه للمعاصي ، يتكرر ذاك الإباء ما حيا .
أما في جانب المخاطب فاسمية الجملة تدل على ثبوت الحدث ودوامه ، فقد نهل المخاطب من شرور الدنيا ، وحلَّ بكل ظلم حتى فاض بالخطايا ، ونشأ في عصر فيه علم ونفع فما انتفع ثبت كل هذا في حقه ، وداوم عليه طيلة حياته على حد تعبير الشاعر .
وفي قوله :" حُميا أم دفر[1] " استعارة أصلية[2] .
والسر البلاغي للاستعارة يبدو في بيان حال المنغمس في الشهوات الغارق في اللذات ، والذي يبدو كحال شارب الخمر ؛ حيث يكون مخدرا غير مدرك لماهية الأمور وعواقبها ، يظل منغمسا في سكره يزداد منها كأسا تلو الآخر كذا الغارق في المعاصي والشهوات يستلذ بفعلها ،ويزداد منها ، وتقل تقواه شيئا فشيئا حتى تنعدم فيجمد قلبه ويصير صلدا جلمودا لا يقبل خيرا ولاينتفع به.
وفي قوله :" وأنت حللت فيه وانهملت " استعارة تبعية[3] .
وبلاغة الاستعارة تكمن في المبالغة في بيان انهماك الرجل في الظلم وارتكابه للمعاصي حتى فاضت نفسه ظلما ، وكأن الظلم يعلن عنه متى وجد فيزداد ويغمر المكان .
وفي الأبيات الثلاثة يلعب طباق السلب دورا رئيسيا في المقارنة بين حال الشاعر والمخاطب ، يبدو ذلك واضحا في قوله :" لم أشرب ... وأنت شربت – لم أحلل ... وأنت حللت – لم أنشأ... وأنت نشأت " .
وتبدو بلاغة الطباق في ردع المخاطب ردعا قاسيا ردا على هجائه قائلا له : تنبه لنفسك قبل أن تهجو غيرك ، وانظر لعيوبك فاسترها قبل أن تكشف عيوب الناس .

وَقَـــدْ صَـــاحَبْتَ أَعْلاَمـــاً كِبَـــاراً وَلَـــمْ أَرَكَ اقْتَـــدَيْتَ بِمَـــنْ صَـــحِبْتَا

وَنَـــادَاكَ " الْكِتَـــابُ " فَلَـــمْ تُجِبْـــهُ وَنَهنهَـــكَ الْمَشِـــيبُ فَمَـــا انتَبَهْتَـــا

لَيَقْـــبُحُ بِـــالْفَتَى فِعْـــلُ التَّصَـــابِي وَأَقْـــبَحُ مِنْـــهُ شَـــيْخٌ قَـــدْ تَفَتَّـــى

قيَّد الماضي (صاحبت) بـ(قد) ؛ ليفيد تحقق وقوع الفعل من صحبته للأخيار ونشأته بجوارهم . يدعم هذا المعنى استخدامه لصيغة (فَاعَلَ) ، فلم يقل (صحبت) ولكن (صاحبت) ؛ ليبين التشارك في المصاحبة الواقع من الطرفين ، فالرجل لم يتطفل على العلماء الكبار ، ولكن كانوا أصدقاءه يصاحبهم ويصاحبونه .
ووصفهم بالوصف (كبارا) ؛ ليوضح أنهم كبار في العلم علماء أجلاء ، لم تكن شهرتهم عن فراغ ، ولكن كانوا أعلاما كبارا .
واستخدم الماضي المسبوق بنفي الرؤية في قوله :" ولم أرك اقتديت " ؛ ليوضح نفي وقوع الفعل نفيا باتا ؛ مما يعود على المخاطب بالذم ، فقد صاحب أعلاما كبارا إلا إنه لم يقتد بهم .
واستخدم الموصول (من) في قوله :" من صحبتا " ؛ للتفخيم من شأن الصحاب ، فقد كانوا على قدر من العلم والتقى .
والسر البلاغي يكمن في ذم المخاطب وتقريعه ؛ لأنه إذا كان أصحابه بذاك الفضل والخير ، وهو بهذا الشر يهجو الكرام من الناس فقد انتفت حجته في الآخرة ، فلا هو جاهل ولا اتبع جهلاء ، ولكنه مستنير البصر اتبع من العلماء كبارهم ، ولكن طامته الكبرى كانت في عمى البصيرة .
واستخدم الماضي في (ناداك الكتاب ـ نهنك المشيب)
ليفيد تحقق وقوع الفعل ، فالرجل على علم بكتاب الله ، علم من آياته ما ينهاه عن الخوض في الشر ، إلى جانب إتيان المشيب له رسولا ينبهه ، ومع كل ذلك لم ينتبه .
وقوله :" ليقبح بالفتى " صيغة أمر خارجة عن حقيقتها إلى الزجر .

---

[1] حُميا كل شيء : شدته ـ دَفِر الشيء: خبثت رائحته ، وأم دفر : كنية الدنيا/ اللسان مادة (حمي ـ دفر)
[2] استعار كأس السكر لشهوات الدنيا ومعاصيها بجامع التلذذ في كل ثم الإفاقة منها على الندم ، وجرت الاستعارة في الاسم الجامد فهي أصلية .
[3] استعار انهمال العين ،وهو فيضها بالدموع لانغماسه في الظلم بجامع الوفرة في كل ، فقد انغمس في الظلم حتى فاض ، وازداد ظلمه كما تفيض العين بالدموع .

تبدو بلاغتها في ذم الفتى إذا تصابى ، وانغمس في اللهو والشهوات ؛ ليكون ذاك الندم مقدمة لما ورد في الشطر الثاني من ذمٍ أشد عبَّر عنه بـ(أفعل التفضيل) في قوله :" وأقبح منه " ، فالقبح أشد ؛ لأنه في جانب الشيخ إذا تصابى وأتى بأفعال الفتيان .

وفي (ناداك الكتاب – نهنهك المشيب) استعارتان مكنيتان[1] .

وبلاغة الاستعارتين تكمن في بيان انعدام الحجة للمخاطب ، فقد جاءه رسل للإنذار يحثونه على ضرورة الرجوع عن الأفعال المشينة ، نبهه كتاب الله ، وأنذره المشيب بقرب الأجل ، فبطلت حجته في التمادي في تلك الأفعال .

وبين (الفتى – شيخ) طباق .

يبين أنه إذا التُمِس العذر في جانب الفتى بعض الشيء ؛ لانفتاحه على الدنيا ، ورغبته في متعها ، واستبطائه الموت ، فإن العذر غير مقبول على الإطلاق في جانب الشيخ ، فالشيب علامة الصلاح والوقار ، يزين صاحبه ويمنعه من التصابي .

****

[1] شبه الكتاب بإنسان وحذف المشبه به ، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو النداء ، وشبه المشيب بإنسان وحذف المشبه به ، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو النهنهة أي الزجر .

* المبحث السادس *

تقييد الفعل الماضي بـ(لو) مع تدعيم المعنى بالطباق ، وبيان أثر ذلك في دلالات التراكيب – الأبيات (٧٣-٨٦).

يوجه الشاعر اللوم اللاذع للمخاطب مستخدما في بعض أبياته الفعل الماضي مقترنا بـ(لو) ؛ ليزيد من حسرة المخاطب على تقصيره مدعما ذلك بالطباق الذي يوضح الفرق بين حالين لو اتبع الخير منهما لأمن بدلا من خوفه ، فأجده يوجه الخطاب القاسي كقوله :" لو بكت الدما عيناك – لو وصلت لما رجعتا – لو وافيت ربك دون ذنب " ، وغيرها مما يزيده أسى وحزنا لو تدبر المعنى وأمعن النظر ، يقول الشاعر :

فَأَنْتَ أَحَقُّ بِالتَّفْنِيـــدِ مِنِّي وَلَوْ سكت المُسيء لَمَا نَطَقْتَا
وَنَفْسَكَ ذُمَّ لاَ تَذْمُمْ سِوَاها بِعَيْبٍ فَهْيَ أَجْدَرُ مَنْ ذَمَمْتَا

عرَّف المسند إليه بالضمير ؛ للقصد بتوجيه الخطاب توجيها مباشرا ، وكأنه يشير إليه بإصبعه مركزا عليه مبرزا عيوبه .
وقيَّد الماضي (سكت) بـ(لو) ؛ لاستبعاد وقوع الفعل ، فالمسيء بالرغم من إساءته إذا وجه له الأمر ربما ينكر ويتمادى في الإساءة ، فإن سكت اعترافا بالخطأ ، فالمخاطب أحق منه بالسكوت ، ليعني من وراء ذلك أنه أكثر في الإساءة عن غيره .
قدَّم المفعول (نفس) على المسند (ذُمَّ) في قوله :" نفسك ذُمَّ "؛ ليفيد القصر ، ويؤكد على هذا قوله :" لا تذمم سواها " .
وبلاغة القصر تبدو في بيان تقصير المخاطب وسوء أفعاله إلى الحد الذي استحق عليه أن يذم نفسه قبل أن يذمه غيره ، فوصول العبد لذم نفسه من أقصى درجات العقاب ؛ لأن تلك حالة نفسية تستدعي الاعتراف بالذنب والندم عليه ، وهي مقدمات للتوبة النصوح .
والأسلوب الإنشائي اشتمل على الأمر والنهي (ذم نفسك ولا تذمم سواها) ، وقُصِد به التوبيخ على أفعاله السيئة التي لم يقابلها بالتوبة ولكن قابلها بالسخرية من الشاعر وهجائه ، فزاد نفسه بلاء على بلاء .
ونكَّر لفظة (عيب) ؛ للتفخيم من عيبه الذي استحق به الذم ، لذا أكَّد على عظم عيبه بأفعل التفضيل قائلا :" فهي أجدر من ذممتا " ؛ لينبهه إلى أنه أحق الناس بالذم ، فكيف يذم الشاعر ويهجوه ونفسه تملؤها العيب .

فَلَـــوْ بَكَـــتِ الـــدِّمَا عَيْنَـــاكَ خَوْفـــاً لِـــذَنْبِكَ لَـــمْ أَقُـــلْ لَـــكَ قَـــدْ أَمِنْتَـــا

وَمَـــنْ لَـــكَ بِالأَمَـــانِ وَأَنْـــتَ عَبْـــدٌ أَمِـــرْتَ فَمَـــا ائْتَمَـــرْتَ وَلاَ أَطَعْتَـــا

قيَّد الماضي (بكى) بـ(لو) ؛ ليفيد استبعاد وقوع الفعل ، فبكاء العين الدم من المستبعد بمكان .
وتبدو بلاغته في بيان تجرده من الأمان ولو بكى بدل الدموع دما .
وقدَّم لفظة (الدما) على (عيناك) ؛ للاهتمام بالمقدم فهو المراد ، وهو الدال على انعدام الأمن .
وقوله :" لو بكت الدما عيناك " كناية عن الحسرة .
وتبدو بلاغته في أنه لو وضع المخاطب نفسه موضع المتحسر النادم أشد الندم على ذنبه فلا يأمن مع هذا لذنبه إلا ما شاء الله .
ومع تقييد الفعل بـ(لو) يظهر الطباق بين (خوفا – أمنتا) ؛ ليرتبط بالفعل المستبعد الوقوع ، فيجعل من شدة الخوف زيادة في الخوف وليس أمنا ؛ لارتباط الخوف بالذنب الذي يغص في الحلق فيزيده خوفا ورهبة .

ثَقُلْتَ مِنَ الذُّنُوبِ وَلَسْتَ تَخْشَى لِجَهْلِكَ أَنْ تَخِفَّ إِذَا وُزِنْتَا

استخدم الماضي (ثقلت) ؛ ليفيد تحقق وقوع الفعل ، فقد أثقلت السيئات عاتقه .
واستخدم (من) للتبعيض في قوله :" من الذنوب " ؛ ليجعل من بعض الذنوب التي ارتكبها حملا ثقيلا ينوء به المخاطب ، فما الحال إذا حُمِّل بجل ذنوبه .

واستخدم واو الحال في قوله :" ولست تخشى " ؛ ليوضح أنه لاهيا غير مدرك عبء ما حُمِّل به من بعض ذنوبه ، فتجده غير خائف وما هذا لذكاء منه ولكن لجهل كبير ، ولذا استخدم المصدر (جهلك) ؛ ليفيد ثبوته على حالة الجهل ، فمن استخف بثقل ذنوبه لاهيا ما هو إلا جاهل ثبت حاله على الجهل .
وقيَّد (وُزِن) في قوله :" إذا وزنتا " بـ(إذا) ؛ ليوضح أن الفعل حادث فلا مفر من الحساب والميزان .
وهنا يلعب الطباق دورا كبيرا في خدمة المعنى في قوله :" ثقلت – تخف " مبينا أن من ثَقُل بسيئاته خف ميزانه ، ومن خف ميزانه فقد ساء مصيره ، فالطباق يدق ناقوس الخطر على قلب المخاطب يستفيقه من ثباته العميق لعله يرجع إلى رشده ويدرك ما فاته .
وبين (ثقلت – تخف – وزنتا) مراعاة للنظير .
فالوزن يتعلق بالخفة والثقل ، فإذا كان الوزن في ساحة الآخرة فإن للموزون قيمة كبرى تهديه إلى الجنة أو تقوده إلى النار .

وَتُشْفِقُ لِلْمُصِرِّ عَلَى المَعَاصِي وَتَرْحَمُهُ وَنَفْسَكَ مَا رَحِمْتَا

فارق الشاعر في استخدام الماضي والمضارع في التركيب ، فاستخدم الفعل المضارع في جانب غيره قائلا :" تشفق للمصر – ترحمه " ، واستخدم الماضي في جانب المخاطب قائلا :" نفسك ما رحمتا " .
وسر بلاغة تلك المفارقة تبدو في بيان تجدد شفقته ورحمته وخوفه على المذنب ؛ خشية عليه من العقاب أو سوء الخاتمة تتكرر منه الخشية والرحمة في جانب غيره بينما لا يرحم نفسه ولا يخشى عليها من الانزلاق في مهوى الخطايا مستخدما الماضي المنفي (ما رحمتا) ؛ ليفيد تحقق انتفاء الرحمة في جانب نفسه ، فهو يشفق على غيره ولا يبالي بذاته ماذا تفعل ولا إلى أي طريق تسعى ، وفي ذاك قمة الجهل .
وبين (ترحمه – ما رحمتا) طباق السلب الذي يوضح بدوره قلة الإدراك لاتباع هوى النفس الذي يخفي صفحة المرآة فيعمي المخاطب عن النظر إلى حقيقته .

رَجَعْتَ الْقَهْقَرَى وَخَبَطْتَ عَشْوا لَعَمْرُكَ لَوْ وَصَلْتَ لما رَجَعْتَا

يستخدم الشاعر في هذا البيت الأفعال الماضية في (رجعت – خبطت – وصلت) ؛ لتفيد تحقق وقوع معانيها ، فقد رجع إلى الوراء ، وتخبط عشوائيا بسوء أفعاله ، ولو قُدِر له الوصول إلى الخير لما انتكس حاله .
والأفعال الماضية في البيت تؤكد على تخبطه في الدنيا وتدهور حاله على حد تعبير الشاعر .
واختص من الرجوع (القهقري) [1] ؛ لأنه رجوع إلى الوراء دون التفات إلى جهة الرجوع ، وهذا الوضع أدعى إلى التخبط والوقوع ؛ لأنه رجوع بلا نظر ولا انتظام ، ولذا جعل التخبط عشوا ؛ ليجعله عن حيرة وقلة هداية[2] ، وذاك الوضع أدعى للوقوع في الخطأ والضلال ، وهو مراد الشاعر ؛ حيث يرغب في بيان ضلال الرجل وتخبطه فجعل سيره رجوعا ، ورجوعه قهقريا يتخبط ، وتخبطه عشوا ، فأبلغ الشاعر في بيان المراد .
وقيد الماضي (وصلت) بـ(لو) ، وأكده بالقسم قائلا :" لعمرك لو وصلت " ؛ ليؤكد على استبعاد وقوع الفعل ، وهو وصوله إلى الخير بأفعاله ، فلو وصل إلى فعل الفضائل لداوم عليها ، ولظل حاله ثابتا على فعل الخير .
وأجده يربط بين الماضي المقيد بـ(لو) بنقيضه قائلا :" لعمرك لو وصلت لما رجعت " ؛ ليجعل من استبعاد الوصول إلى المكانة العليا بأفعال الخير استبعادا للرجوع عنها ، فلو حدث أن احتل تلك المنزلة لما تدهور حاله وانتكس ، فالطباق يدل على أنه مازال في خط الساق يتدهور شيئا فشيئا ، ويتراجع عن تخبط وتيه .

وَلَوْ وَافَيْتَ رَبَّكَ دُونَ ذَنْبٍ وَنـاقشكَ الْحسَابَ إذاً هَلَكْتَا
وَلَمْ يَظْلِمْكَ فِي عَمَلٍ وَلٰكِنْ عَسِيرٌ أَنْ تَقُومَ بِمَا حَمَلْتَا

---

(١) رجع القهقرى : إلى الوراء ، وخبط عشواء : مثلٌ ، وأصله من خبط الناقة التي ضعف بصرها ، فهي لا تميز أين تمضي ، وماذا تصيب في طريقها /
ينظر : اللسان مادة (قهقر) ومادة (عشو).

قيَّد الماضي (وافى) بـ(لو) ؛ ليفيد استبعاد وقوع الفعل ، فمن ذا الذي يأتي ربه معصوما من الذنوب ، لكل من البشر لمم يصيبه .
واستخدم الماضي (هلك) ؛ ليوضح تحقق الهلاك إذا حوسب على ذنوبه التي ارتكبها في الدنيا ، فكل من نال القبول في الآخرة ناله برحمة الله ومغفرته لا بأفعاله ، وإلا فأقل نعمة من الله أنعم بها على الإنسان في الدنيا كالبصر ونحوه تقف بإزاء أفعال الخير كلها التي أتى بها في حياته فتغلب عليها ، ويكون المولى جلَّ علاه هو المتفضل بباقي النعم في الدنيا وبالمغفرة في الآخرة.
ولذا نكَّر لفظة (عمل) ؛ للتقليل ؛ لتبين أن أقل خير يأتي به الإنسان في الدنيا يجازى به خيرا في الآخرة ، ولا يستهان به ، قال تعالى :" إن الله لا يظلم مثقال ذرة " ، ومع هذا يدخل المؤمن الجنة برحمة الله لا بجل أعماله .
(لكن) للاستدراك،يستدرك بها على المعنى السابق ، فالمولى جل شأنه لا يظلم أحدا ، ولكن هلاك المحاسب بذنبه،ولذا أتبعها بقوله :" عسير أن تقوم بما حملتا " وهي كناية عن عظم الذنب وثقل الخطايا.
وبهذا يكون الشاعر قد أمعن في ترهيب الرجل ؛ ليوقظه من ثباته العميق ، ويفتح عينيه على حقيقة حاله لعله يصلحها قبل فوات الأوان.

ولو قد جئت يوم الفصل فردا وأبصرت المنازل فيه شتى
لأعظمت الندامة فيه لهفا على ما في حياتك قد أضعتا

لا استسيغ (لو) في قول الشاعر :" فلو قد جئت يوم الفصل فردا " ؛ فما لها من بلاغة في موضعها هذا ؛ لأنها تفيد استبعاد الوقوع أو استحالته ، وهذا الموضع لا يجوز فيه الاستبعاد أو الاستحالة ؛ لأن الذكر الحكيم قد أخبر بأن الكل آتي الرحمن فردا قال تعالى :" وكلهم آتيه يوم القيامة فردا "[1] ، فلا معنى لإتيان (لو) في هذا الموضع .
استخدم الشاعر الماضي في قوله :" أبصرت – أعظمت " ليبين أنه إذا تحقق ونظر إلى درجات المؤمنين ومنازلهم من الخير يوم القيامة ؛ لندم أشد الندم ولتلهف على ما أضاعه في الدنيا .
وهنا قيَّد الماضي في (أضعتا) بـ(قد) ؛ ليؤكد على أنه قد أضاع من عمره ما لم يكسب به خيرا.

تَفِـــرُّ مِـــنْ الْهَجِيـــرِ وَتَتَّقِيـــهِ فَهَـــلاَّ مِـــنْ جَهَـــنَّمَ قَـــدْ فَرَرْتَـــا

وَلَسْـــتَ تُطِيـــقُ أَهْوَنَهَـــا عَـــذاباً وَلَـــوْ كُنْـــتَ الْحَدِيـــدَ بِهَـــا لَـــذُبْتَا

فَـــلا تَكْـــذِبْ فَـــإِنَّ الأَمْـــرَ جِـــدَّ وَلَـــيْسَ كَمَـــا حَسِـــبْتَ وَلاَ ظَنَنْتَـــا

استخدم المضارع (تفر – تتقي) ؛ ليوضح تجدد حدوث الفعل ، ففي دنياه لا يطيق حرارة الهجير فيتقيها ، وسر بلاغة التعبير تبدو في بيان ترف المخاطب ودعته ، فلم يكن على ما يبدو من العاملين الكادحين ، وقد لمح الشاعر سابقا إلى تمتعه بوفرة المال .
وقيَّد الماضي (كنت) بـ(لو) ؛ لاستبعاد كونه من الحديد ، ومع ذلك لو كان حديدا لذاب في جهنم .
وقوله :" لا تكذب " نهي غرضه التحذير ؛ لمجيئه في معرض الحديث عن العقاب ، ربما يعني به كذبه عامة أو كذبه في حق الشاعر خاصة .
وأكد الشاعر قوله :" فإن الأمر جد " بـ(إن) واسمية الجملة ، أكدها تنزيلا للمخاطب منزلة المنكر وقد بدا عليه أمارات التكذيب خاصة ؛ حيث استخف بأمر الآخرة لعبا ولهوا ، وخاض في السيئات .
واستخدم المصدر (جد) ؛ ليؤكد على ثبوت المعنى في أنه جد حق لا خلاف في ذلك .
وقوله :" وليس كما احتسبت ولا ظننت "
تذييل مؤكد لقوله :" إن الأمر جد " غير جار مجرى المثل ، وهو مؤكد للغرض الذي يرمي إليه الشاعر من أن المخاطب تجاهل أمر الآخرة وأتى بما يفيد ذلك من أفعال .

****

[1] سورة مريم آية ٩٥

* المبحث السابع *

نداء المخاطب ومواجهته بخطاب تتفاوت فيه الجمل بين الخبرية والإنشائية –الأبيات (٨٧-٩٩)

يعود الشاعر لنداء المخاطب (أبي بكر) ، وتوجيه الخطاب إليه مع تنوع الجمل بين الخبرية والإنشائية في خطاب لين يختلف عن سابقه ، فقد كانت لهجة خطابه قاسية في الأبيات السابقة ، وكأنه أدرك قسوة الخطاب فألانه بعض الشيء في هذه الأبيات ؛ حتى لا يفر المخاطب من قبول نصحه ، يقول الشاعر :

" أَبَـــا بَكْـــرٍ " كَشَـــفْتَ أَقَـــلَّ عَيْبِـــي ... وَأَكْثَـــــرَهُ وَمُعْظَمَـــــهُ سَـــــتَرْتَا

فَقَـــلْ مَـــا شِـــئْتَ فِـــيَّ مِـــنَ الْمَخَـــازِي ... وَضَـــــاعِفْهَا فَإِنَّـــكَ قَـــدْ صَـــدَقْتَا

وَمَهْمَـــــا عِبْتَنِـــــي فَلِفَـــــرْطِ عِلْمِـــــي ... بِبَـــــاطِنتي كَأَنَّـــكَ قَـــدْ مَـــدَحْتَا

عاد الشاعر لنداء المخاطب بدون أداة نداء كما سبق ؛ استشعارا بقربه ؛ ليخفض له جناح المودة عله يستمع ويقبل النصيحة .

واستخدم الماضي (كشف) ؛ ليوضح تحقق وقوع الهجاء من المخاطب لشخص الشاعر .

وقوله :" قل ما شئت – ضاعفها " جملتان إنشائيتان بدأهما بالأمر والغرض منهما الإباحة .

وتبدو بلاغتهما في بيان عدم مبالاة الشاعر بهجاء المخاطب ؛ إظهارا لتواضعه وكرم أخلاقه .

وأتى بجملة (فإنك قد صدقتا) مؤكدة بـ(إن) واسمية الجملة ، والخبر مؤكد بـ(قد) لا تحفيزا للمخاطب على الهجاء ولكن ؛ ليفوت عليه فرصة السعادة بهجائه ، وليحبط عليه عمله ، وكأنه يقول له : ما قلت شيئا مخترعا ولا بلغت مبلغا تحوز فيه قصب السبق فما زدت عن أن ذكرت بعض ما في من الصفات التي أعلمها ، وفي ذلك قمة اللا مبالاة من الشاعر ، وعدم مبالاة الشاعر تعتبر إحباطا نفسيا للمخاطب بكل مقاييسه ، فقد ذكَّر المخاطب أولا بالموت ، ثم بصفاته السيئة التي كانت أدعى به أن ينتبه لإصلاحها بدلا من الخوض في سيرة الشاعر ، ثم وضح له أن ما خاض به في حقه لا يعنيه شيئا ، ولا يحرك فيه ساكنا.

وقابل الشاعر في البيت الأول بين (أقل – أكثر) و (كشفت – سترت) ، بينما طابق في الثالث بين (عبتني – مدحت)

والسر البلاغي بيان ما تذل به قدم البشر ، ولهذا لم يبالي الشاعر فما أظهره المخاطب عنه أقل مما أخفاه بكثير ، ومع ما يضفيه الطباق والمقابلة من خصائص معنوية أجده يزين اللفظ ؛ إذ يستلذ السمع لتلك المفارقات اللفظية ، فتعلق بالأذهان .

فَـــلاَ تَـــرْضَ الْمَعَايِـــبَ فَهُـــيَ عَـــارٌ ... عَظِـــيمٌ يُـــورِثُ الإِنســـان مَقْتَـــا

وَتَهْـــوِي بِالْوَجِيـــهِ مِـــنَ الثُرَيَّـــا ... وَتُبْدِلَـــهُ مَكَـــانَ الْفَـــوْقِ تَحْتَـــا

كَمَـــا الطاعَـــاتُ تُنْعِلَـــكَ الـــدَّرَارِي ... وَتَجْعَلَـــكَ الْقَرِيـــبَ وَإِنْ بَعُـــدْتَا

قوله :"َلاَ تَرْضَ الْمَعَايِبَ " أسلوب نهي غرضه تقريع المخاطب ولومه ؛ حيث قبل من المعايب ذم الناس والخوض في سيرهم ، وتلك إما غيبة أو بهتان ، ولهذا عطف الشاعر عليها جملة اسمية بفاء السببية قائلا :" فهي عار " ؛ أي سبب النهي أنها عار عظيم ، وأتى بها اسمية ؛ لتدل على الثبوت والدوام في الأمر ، فمن رضي المعايب وأطمأن لها أورثته عارا ملازما في حياته يلحقه بعد مماته .

بينما استخدم المضارع في الجملة الحالية (يورث الإنسان مقتا) ؛ ليوضح تكرار حدوث الفعل ، فإذا كانت المعايب عارا ثابتا ملازما لصاحبه فإنه يلاحقه بالمقت من المولى جلَّ شأنه ثم من البشر يتكرر مع تكرر المعايب .

ونكَّر لفظة (مقتا) ؛ للتعظيم من كم المقت اللاحق بصاحب المعايب المغتاب الباهت لغيره .

ووصل بين قوله :" تهوى بالوجيه من الثريا " ، وقوله السابق " يورث الإنسان مقتا " بمعنى أن المعايب تورث مقتا وتهوى بصاحبها إلى الحضيض ، وفي الوصل تعداد لمساوئ الرضا بفعل العيوب .

وفي قوله :" يورث الإنسان مقتا وتهوى بالوجيه من الثريا " تشبيه ضمني ، حيث شبَّه هيئة تبدل حال وجيه القوم وسيدهم من العلو إلى الدنو بفعل المعاصي والرضا بها ، بهيئة انخفاض نجم الثريا عن مكانه ودنوه بعدما كان عالٍ المنزلة .
وفي قوله :" كَمَا الطَّاعَاتُ تُنعِلُكَ الدَّرَارِي " تشبيه تمثيلي غريب:
حيث شبه هيئة قرب المنزلة من الله عز وجل ثم من محبة البشر وعلوه قدرا بفعل الطاعات ، بهيئة دنو النجوم إلى قدم الطائع يتخذها نعلا متلألئا تجعله قريبا بنوره وإن علا بمكانته .
وسر بلاغة الخيال هنا يكمن في إعلاء شأن الطائع الممتثل لأوامر الخالق ونواهيه ، وفي الوقت ذاته تعقد الصورتان مقارنة بين فاعل السيئات الراضي بالمعايب الباهت المغتاب ، ووضعه من الدنو والانحطاط موضعه ، وبين ذاك التقي الطائع لربه الذي علا مرتبة عن غيره حتى كأن النجوم قد دنت له نعلا تضيئ طريقه ، فتقربه أينما بعد .
وبالبيت مبالغة وصلت إلى حد الغلو ؛ حيث جعل النجوم نعلا للطائع ، ولكنه غلو مقبول ، يقربه التشبيه ؛ حيث يلعب فيه الخيال دورا أساسيا يقلل من حدة المبالغة .

وَتَنْشُرُ عَنْكَ فِي الدُّنْيَا جَمِيلاً ... فَتُلْفَى البِرَّ فِيهَا حَيْثُ كُنْتَا

وَتَمْشِي فِي مَنَاكِبِهَا كريماً ... وَتَجْنِي الْحَمْدَ مما قَدْ غَرَسْتَا

وصل الشاعر بين قوله :" وَتَنْشُرُ عَنْكَ فِي الدُّنْيَا جَمِيلاً - وَتَمْشِي فِي مَنَاكِبِهَا كريماً - وَتَجْنِي الْحَمْدَ مما قَدْ غَرَسْتَا "وقوله السابق " تنعلك الدراري " ؛ للتوسط بين الكمالين .
وبلاغة الوصل تبدو في ربط المعاني كلها بفعل الطاعات ، فيجعلها نتيجة لذاك السبب المتقدم وهو التمثل بالطاعة .
وكلها جمل فعلية فعلها مضارع غرضها التجدد ، فالسبب وهو فعل الطاعات متجدد ، فالمؤمن لا يفعل الطاعة مرة واحدة وينتهي ، ولكن تتجدد الطاعات بتجدد أيامه على مر الزمان ، وكذا النتيجة متجددة تتكرر كلما تكرر سببها ، فتجده ينشر الجميل بين الناس يعترفون له به مرة تلو الأخرى ، وإذا حدث هذا سار في الدنيا كريما محبوبا لا ذليلا مهانا يتجدد شعوره بالكرم والفخر كلما سار في سبيل الطاعة ، ويجني ثمار أفعاله من شكر الناس له ؛ اعترافا بفضله ، فتلك سلسلة من الأفعال مرتبطة ببعضها يتكرر حدوثها ، ففعل الطاعة ينشر عنه الجميل بين الناس ، فيمشي في دنياه كريما ذا سيرة محمودة ، يعترفون له بالفضل ، فيجني الشكر من وراء أفعاله .
ونكَّر لفظتي (جميلا – كريما) ؛ للتفخيم من قيمة الجميل الذي يعلق برقاب الناس لإكرامه لهم ، والذي يرفع بدوره قيمة الفاعل ، فيحوز مرتبة عظيمة من الكرم .
بينما عرَّف لفظتي (البر – الحمد) بـ(أل) للجنس ؛ ليجعله يجني بأفعاله الطيبة أنواعا عدة من جنس البر بما تحمله الكلمة من أجناس شتى وفضائل متنوعة يحوزها فاعل الخير ، ليس فقط ولكن يحوز الحمد أيضا كمكافأة على فعله .
وفي قوله :" وتجني الحمد مما قد غرستا " استعارة مكنية[1] .
والاستعارة مرشحة ، رشح لها بقوله :" تجني " ، والجنى في جانب النبات والشجر .
وسر بلاغة الاستعارة يبدو في بيان عظيم أفعاله الكريمة يوضح ذلك استخدامه الموصول (ما) الذي يفخم من قدر أفعاله الخيرة ، ويجعلها شجرة دائمة الغرس متجددة الثمار .

وَأَنْتَ الآنَ لَمْ تُعْرَفْ بِعَابٍ ... وَلاَ دَنَّسْتَ ثَوْبَكَ مُذْ نَشَأْتَا

وَلاَ سَابَقْتَ فِي مَيْدَانِ زُورٍ ... وَلاَ أَوْضَعْتَ فِيهِ وَلاَ خَبَبْتَا

الواو في قوله :" وَأَنْتَ الآنَ لَمْ تُعْرَفْ بِعَابٍ " للإستئناف ، يستأنف الشاعر على المخاطب صفاتا جديدة لم يسبق أن عرضها في أبيات سابقة ، مستخدما الجملة الاسمية ؛ لتدل على ثبوت المعنى حيث ؛ تنخفض

[1] شبه فعل الخير في الناس بالشجر المغروس ، وحذف المشبه به ، ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الغرس على سبيل الاستعارة المكنية .

نبرة الشاعر في هذه الأبيات إلى درجة قد نتوهم فيها مدح المخاطب ، فبعدما قسى عليه في أبيات سابقة ، وواجهه بذميم فعله ، وقارن بين أفعاله السيئة وأفعال الشاعر ، بدأت نبرته تنخفض في هذه الأبيات لأقصى درجة ؛ لجذب القبول ، لذا أرى أنه كلما اقترب الشاعر من إنهاء قصيدته كلما زادت درجة تقربه للمخاطب المنصوح ؛ استمالة له وتوددا ؛ لمحاولة إقناعه بأنه كان على الخطأ ، ووجب عليه تغيير أفعاله والعودة إلى رشده .
ونكَّر لفظة (عاب) ؛ للتقليل ؛ لينفي أقل قدر من العيب عن المخاطب .
وبلاغة التنكير توضح ذكاء الشاعر ، فهو ينفي عن الرجل العيب ولو كان قليلا ؛ ليضعه في مأزق خفي كيف لا يكون عيابا ثم يعيب الشاعر ويهجوه .
واستخدم الماضي المنفي (لا دنست – لا سابقت – لا أوضعت) واصلا بين الجمل الثلاثة ؛ ليربط بين سلسلة الأفعال المنفية عن المخاطب والتي تفيد نفي تحقق تلك الأفعال مما ينفي عن المخاطب ما يشينه نفيا محققا .
وبلاغة تحقق نفي الأفعال تكمن في طرح المسؤولية على عاتق المخاطب طرحا ثقيلا يجبره على حملها والسير بها طيلة حياته ، فقولك لفلان : (أنت كريم لم نر منك ما يشينك) يضعه في حيز ضيق يوجب عليه الالتزام بتلك الأقوال ؛ لتظل ثابتة في حقه وإلا تغيرت النظرة إليه ، وهذا ما لا يقبله ذو السيرة الحسنة .
وقوله :" ولا دنست ثوبك " كناية عن نسبة الشرف إليه ، وتنزهه عما يدنس ذاك الشرف ، كنى عن ذلك بنفي النسبة عن الثوب وهو ملابس لصاحبه .
وكذا قوله :" ولا سابقت في ميدان زور " كناية عن نسبة الأمانة ونفي قول الزور عنه .
وبلاغة الكنايتين تكمن في التقرب إلى المخاطب من ناحية ؛ خشية أن ينفر من نصحه خاصة بعدما أثقل عليه الخطاب فيما سبق ، والحث على فعل ما وصفه به في الكنايتين من ناحية أخرى مما يتطلب منه التوقف عن ذم الشاعر .

فَإِنْ لَمْ تَنْأَ عَنْهُ نَشِبْتَ فِيهِ ... وَمَنْ لَكَ بِالْخَلاَصِ إِذا نَشِبْتَا

وَدَنَّسُ مَا تَطَهَّرَ مِنْكَ حَتَّى ... كَأَنَّكَ قَبْلَ ذلِكَ مَا طَهُرْتَا

وَصِرْتَ أَسِيرَ ذَنْبِكَ فِي وَثَاقٍ ... وَكَيْفَ لَكَ الْفِكَاكُ وَقَدْ أَسِرْتَا

قوله :" فإن لم تنأعنه نشبت فيه"
أسلوب شرط يهدف الشاعر من ورائه إلى تحذير المخاطب ، وبلاغة الأسلوب تبدو في حسن انتقاء الألفاظ ، فاللفظ (نأى) يحمل معنى البعد والمفارقة[1] ، وهو المراد حيث يريد الشاعر من المخاطب أن ينأى بنفسه عن كل ما يشينه ، وكذا اللفظ (نشب) بمعنى عَلق بما يفيده من التعلق واللزوم ، يخدم المعنى حيث يفيد أنه إن لم يبتعد عما يدنس نفسه وقع في الشَرك دونما خلاص ، فالشرط بألفاظه المنتقاه تهدف إلى تحذير المخاطب وتخويفه.
وقوله :" وَمَنْ لَكَ بِالْخَلاَصِ إِذَا نَشِبْتَا "
استفهام استبعادي يؤكد على مضمون الشرط ، ويرمي إلى ترهيب المخاطب من السير في درب يقوده إلى الهلاك الحتمي.
ووصل الشاعر بين قوله :" ودنَّس ... – وصرت ... " وبين قوله السابق :" نشبت فيه " ؛ للتوسط بين الكمالين ، فالجملتين معطوفتين على جواب الشرط تأخذان الحكم نفسه من أنه إذا لم ينأ بنفسه عن المعايب وقول الزور نشأ فيه فدنس طُهره ، وصار عبدا لمعاصيه وشهواته أسيرا لها لا عتق له .
والأفعال الثلاثة ماضية تفيد تحقق الثبوت ؛ ليلقي بكل التحذيرات المتحققة على عاتق المخاطب كنتيجة لفعله إن لم يستجب للنصح ؛ ليرتدع عن مجرد التفكير في خوض تلك المسالب .
قوله :" وكيف لك الفكاك وقد أسرتا "

[1] ينظر : اللسان مادة (نأي)

استفهام استبعادي ، يستبعد عليه النجاة إذا وقع في شراك الخطايا مؤكدا الأسر بـ(قد) ؛ ليحقق من وقوعه في أسر ذنوبه إذا لم يتجنبها من البداية ، ولذا لم يجعله مجرد أسير ، ولكن جعله أسيرا في (وثاق) ليبالغ في بيان إحكام أسْرِه .
وفي قوله :" أسرتا " استعارة تبعية [1] ؛ حيث استعار الأسر لالتزام الخطايا.
حيث جعل من استعباد الشهوات لراغبيها أسرا ، وبلاغة الاستعارة تبدو في بيان أن من اتبع درب الشيطان استعبده هواه ، فصار له أسيرا .

****

[1] استعار الأسر لالتزام الخطايا بدافع الشهوات والرغبات بجامع التحكم في كل ، ثم اشتق من الأسر (أُسِرت) على سبيل الاستعارة التبعية في الفعل .

* المبحث الثامن *
التوجيه المباشر للخطاب ودوره في ختام القصيدة – الأبيات (١٠٠-١١٢)

يقترب الشاعر من ختام قصيدته التي بناها على النصح ، وبعض من العتاب يتخلله التوجيه والإرشاد ، وكلما اقترب من ختامها كلما تقرب إلى المخاطب فألان له جانب المحبة ، وأظهر له الحرص على سلامته في الدنيا مما يشينه ، وفي الآخرة مما يعاقب عليه ، فأكثر من الأمر والنهي في تلك الأبيات كخطاب مباشر لا للتعالي ولكن للنصح الخالص فأجده يحذره قائلا :

وَخِـفْ أَبْنَـاءَ جِنْسِـكَ وَاخْـشَ مِـنْهُم كَمَـا تَخْشَـى الضَّـرَاغِمَ وَالسَّـبَنْتَى[1]

والأمر فيه للتحذير ، تبدو بلاغته في ذكر الخوف والخشية معا ؛ لمزيد من التأكيد على وجوب الحذر وعدم الاطمئنان هذا من جانب ، ومن جانب آخر تبدو بلاغته في تسليط الأمر بالخوف من (أبناء الجنس) ، فلم يقل له : (اخش الناس) ، وليس أبناء الجنس سوى البشر ، ولكنه خصهم بهذا اللفظ ؛ لتكون نبرة التحذير أشد ؛ حتى إذا توهم المخاطب ألا شر فيهم لكونهم من أبناء جنسه قطع الشاعر عليه هذا التوهم موضحا له أن الشر الأشر يأتي من بني جنسه ممن قد يتوهم فيهم البراءة ؛ لذا فليحذر أشد الحذر منهم .
ووصل بين الأمرين (خف) و (اخش) ؛ للتوسط بين الكمالين فالجملتين معهما إنشائيتين لفظا ومعنى ، وهو من محسنات الوصل ، وفي الربط بينهما مبالغة في التحذير .
وبالبيت تشبيه تمثيلي ؛ حيث شبه هيئة الخوف والخشية التي يجب أن يضعها في اعتباره من أبناء جنسه على الخصوص ، بهيئة الخوف والخشية من مواجهة الأسود والنمور .
وسر بلاغة التشبيه تكمن في التقاط الحالة النفسية المرتبطة بالمشبه به ، وهي خشية النمور والأسود ، فتلك حالة من الذعر والرهبة الشديدة تلحظ في الوجه تخلع القلب وتزلزل الكيان ، ثم نقل تلك الحالة النفسية إلى المشبه وهي خشيته من خيانة البشر ، والشاعر لا يبالغ في ذلك بقدر ما تبين من حقيقة بعض الخلق ، فقد يثق الإنسان بصديق لحد لا يتخيل معه الخيانة مطلقا ، فإذا حدث أن خانه وأخاب ظنه ، فإن المخون تنتابه حالة غريبة من الدهشة وصعوبة التصديق لا لبشاعة الفعل ولكن لكون الفاعل من أقرب الناس إليه مودة ، فالشر إذا أتى ممن لا يتوقع منه كان وقعه على النفس أشد .
وبين (الضراغم والسبنتى) مراعاة للنظير ؛ حيث أتى بهم من جنس واحد ؛ ليوافق جنس المخشي منه وهم البشر المعبر عنهم بقوله :" أبناء جنسك " ؛ لينقل جنس الخشية من خيانة البشر إلى جنس الخشية من الأسود والنمور ؛ مبالغة في التحذير من الجنس الأول .

وَخَالِطْـــهُمْ وَزَايِلْهُم حِذَاراً وَكُنْ كَـ "السَّامِرِيِّ " إِذَا لُمِسْتَا
وَإِنْ جَهِلُوا عَلَيْكَ فَقُلْ : سَلاَمًا لَعَلَّكَ سَـوْفَ تَسْلَمُ إِنْ فَعَلْتَا
وَمَنْ لَكَ بِالسَّلاَمَـةِ فِي زَمَانٍ يَنَالُ الْعُـصْمَ إِلاَّ إِنْ عُصِمْتَا

قوله :" وخالطهم وزايلهم " أمران أريد منهما النصح بمواراة الناس ؛ حذارا من سهامهم وطعناتهم .
سر بلاغته تضح في تنبيه الشاعر للمخاطب على ضرورة مداهنة بعض البشر ممن يخشى شرورهم ، فوقوفه في مهب الرياح يقصمه ، ولكن انحرافه عنها حتى تمر يتركه بسلام .
وقيَّد الماضي في قوله :" وإن جهلوا عليك " بـ(إن) ؛ للتقليل من حدوث الفعل ، فتخويف الشاعر من البشر لا يعني أنهم كلهم بتلك الأوصاف من الغدر والخيانة ، فالبعض منهم يجهل على غيره لا كل البشر ، فإن حدث ذلك فليقل سلاما .
وقوله :" قل سلاما " أمر قصد منه الإرشاد إلى ترك الجاهل دون مناقشة أو حوار ، فما يسفر الحوار مع الجاهل عن خير أبدا ، ولذلك فإن من أشد الأمور صعوبة على أحكم الناس وأعقلهم مخاطبة الجاهل سليط اللسان ، فمن كان بتلك الصفة فالنجاة منه بالاجتناب أو بقولٍ فيه السلامة .
ونكَّر لفظة (سلاما) ؛ للتقليل ، فليس المطلوب في مثل هذا الموقف إلا أقل القليل من القول الذي يضمن به السلامة من الخوض مع الجاهل في نقاش .

---

١ السبنتى: النمر / اللسان مادة (سبت)

واستخدم (لعل) ؛ أملا منه في وقوع السلامة[1] ، وقيَّد الفعل بـ(إن) في قوله :" إن فعلتا " للتقليل من حدوثه ، فمن يفعل ذلك إلا الحليم الصبور ، وقديما قال الشاعر :" ونجهل فوق جهل الجاهلينا " ، وهذا ما يحدث مع الكثير ؛ حيث تأخذه الحمية والسورة فيجهل على الجهل جهلا ، ويزداد الأمر سوءا ، فمن يقل للجاهل قولا يطلب به السلامة إلا الصبور الحليم وقليل ما هم .

وقوله :" ومن لك بالسلامة في زمان ينال العصم "

استفهام استبعادي ، تبدو بلاغته في بيان قسوة أهل هذا الزمان ، واهتمام كل فرد فيه بمصالحه الخاصة والوصول ولو على حساب غيره ، حتى أضحى أهل هذا الزمان لا يسلم فيه أحد من أحد .

واستخدم المضارع (ينال) ؛ ليوضح تكرار النيل ، وتبدو بلاغة التكرار في بيان أن تعرض الإنسان للأذى في حياته ليس لمرة واحدة وينتهي الأمر ، ولكنه معرض لذلك كلما اختلط بناقص العقل سيء الخلق وتعامل معه .

واختص (العُصم[2]) ؛ ليبين أن أذى أهل هذا الزمان ينال الجميع ، فلا ينجو منه أحد إن لم يكن باليد أذى فباللسان ، حتى إنه ليصل إلى العُصم النادر الوجود .

لذا قيَّد الماضي في قوله :" إن عصمتا " بـ(إن) ؛ ليوضح ندرة وقوع الفعل فمن له بالعصمة من شرور البشر إذا كان الأنبياء والصالحون لم يسلموا من الأذى حتى سُمِي بعضهم بأولي العزم لما تحملوه من مشاق وإيذاء من أقوامهم فما الحال مع البشر غير المعصومين !

وقوله :" كن كالسامري تلميح وإشارة إلى قصة السامري ؛ نُصحا من الشاعر باجتناب الناس والجاهلين منهم خاصة .

وقوله :" ينال العصم " تشبيه ضمني ؛ حيث شبه نيل الأذى للبشر لا يسلم أحد من ذلك إن لم يكن باليد فباللسان ، بنيل العصم وهي الوعول والظباء التي تسكن الجبال فتحتمي بها ، وليست أي وعول ولكنها ذوات صفة نادرة لا توجد في غيرها ومع ذاك لم تسلم من النيل ؛ ليوضح بذلك ندرة سلامة العقلاء من أذى الجهلاء.

وقوله :" وإن جهلوا عليك فقل سلاما "

اقتباس من قول الله تعالى :" وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا "[3] على طريقة العقد ، حيث عقد من كلام الله تعالى وأدخله في النظم ، فلم يقتبسه بنصه .

وبلاغة الأخذ تكمن في الاستدلال بالذكر الحكيم في الحث على اجتناب الجهلاء وعدم مخالطتهم .

وبين (سلاما – تسلم) جناس اشتقاق ، وقوله (سوف تسلم) و (من لك بالسلامة) من الرجوع[4] يؤكد به المعنى السابق ، وهو ندرة سلامة العقلاء من أذى الجاهلين .

وبين (العصم) و (عصمتا) جناس اشتقاق :

الأولى بمعنى النادر من الظباء والوعول ما في يده بياض وسائر جسده لون آخر ، والثانية (عصمت) بمعنى سلمت ووقيت من الأذى .

وبلاغة الجناس تكمن في بيان صعوبة السلامة من أذى البشر في زماننا هذا حتى إن الأذى لينال الظباء النادرة في حصنها كذا ينال من تحصن منهم وحاول الابتعاد عنهم .

وَلاَ تَلْبَثْ بِحَيٍّ فِيهِ ضَيْمٌ ... يُمِيتُ الْقَلْبَ إلاّ إنْ كُبِلْتَا

وَغَرِّبْ فَالغَرِيبُ لَه نَفَاقٌ ... وَشَرِّقْ إنْ بِرِيقِكَ قَدْ شَرِقْتَا

وَلَوْ فَوْقَ الأمِيرِ تَكُونُ فِيهَا ... سُمُّواَ وَافْتخَارًا كُنْتَ أنْتَا

---

[1] لعل : موضوعة لإنشاء توقع أمر متردد بين الوقوع وعدمه مع رجحان الأول / من أسرار التعبير بالحروف المشبهة بالفعل (إن وأخواتها) د/هاشم محمد هاشم ص١١١ ط١ القاهرة ١٩٩٤م

[2] العُصم : (ج) أعصم ، وهو من الظباء والوعول ما في ذراعيه بياض / اللسان مادة (عصم)

[3] سورة الفرقان آية ٦٣

[4] الرجوع: العود إلى الكلام السابق بالنقض ؛ لنكتة/ المطول للعلامة سعد الدين التفتازاني شرح وتعليق /أحمد عزو عناية ص٦٦٠/ ط١ دار إحياء التراث العربي / بيروت ـ لبنان ١٤٢٥ هـ ٢٠٠٤م

الأسلوب الإنشائي من النهي في قوله :" وَلاَ تَلْبَثْ بِحَيٍّ فِيهِ ضَيْمٌ "، ومن الأمر في قوله :" وغرِّب " و " شرِّق " كله للإرشاد .
يرشد الشاعر المخاطب خاصة ، وكل سامع للأبيات قارئ لها عامة ألا يقيم بمكان على الخسف والذلة.
ونكَّر لفظة (ضيم) ؛ للتعظيم ، فالذي يجعل الإنسان يترك أرضه وربما ماله لا ظلم حقير يتعرض إليه ، وإلا لترك البشر كلهم أماكنهم ، ولكن يعني ظلم عظيم ، ولذا وصفه بجملة (يميت القلب) بما تحمله الجملة من معان شتى وضروب متنوعة من الظلم في الدين أو العرض أو ظلم فادح في المال ، مما يجعل الإنسان ينأى بنفسه وأهله إلى مكان يأمن فيه على دينه وعرضه وماله وجميع ما يستحق أن يرحل به حفاظا عليه .
واستخدم الشاعر في التعبير أسلوب القصر ، مختصا من أدواته النفي والاستثناء بما تفيده تلك الأداة من قوة التأكيد ، فـ" لا تلقاك تلك الأداة إلا حيث تلقاك النبرة العالية ، والنغمة الحاسمة والتعبير الشديد "[1]
ونكَّر لفظي(سموا – افتخارا) ؛ للتعظيم ؛ ليجعل منزلته في تلك الديار الجديدة تعلو منزلة الأمير في السمو والافتخار ؛ وليؤكد على تلك المنزلة الرفيعة استخدم الماضي قائلا : " كنت أنت " ليحقق من ذاك الكون الرفيع المتمثل في العلو سموا وافتخارا .

وقوله :" يميت القلب " كناية عن عظم الظلم النابع من قلب لا يعرف معنى الرحمة .
وفي البيت تضمين من أبيات المتلمس الضبعي[2] :

ولا يقـيمُ علـى ضـيم يُسـام بـه إلا الأذلان عيـرُ الحـي والوتـد

هـذا علـى الخسـفِ مربـوط برُمتـه وذا يُشـجّ فـلا يرثـي لـه أحـدُ

وبلاغة الاقتباس بالتضمين تكمن في إيجاز الشاعر ؛ حيث ألم بالمعنى في بيت واحد ، أو لنقل اختصر الفائدة في الشرط (إلا إن كبلتا) .
وقوله :" الغريب له نَفَاق " أي رواج كرواج السلعة ، أوردها على سبيل الاستعارة التبعية[3].
فكما أن بعض السلع يروج بيعها ويزيد سعرها عن غيرها ، كذلك جعل الشخص المهان في أرضه المتعرض للذلة إذا سافر في مكان آخر يجد فيه احتراما وتقديرا من أهل ذاك المكان فترتفع منزلته عند أصحاب المنزل الجديد ، فكثيرا ما نرى بعض الأفراد يضيق عليهم العيش في بلادهم ، فيرحلوا إلى غيرها ، فيجدوا من السعة والتقدير ما لم يجدوه في أماكنهم الأولى .
وقوله :" إن بريقك قد شرقتا " كناية عن الظلم الفادح الذي يغص في الحلق ، فتصعب معه الحياة .
وبين (غَرِّب – شَرِّق) طباق .
تبدو بلاغته في بيان انفتاح الدنيا بأرضها شرقا وغربا على الراغبين في الرحيل ، فأرض الله واسعة ، لا تنفر من البشر ، فمن ضاق عليه مكانه فليتخذ سبيلا غيره .
وبين (شَرِّق – شَرِقْتَ) جناس ناقص .
الأولى بمعنى جهة الشرق ، والثانية بمعنى غصة الحلق ، وبلاغة الجناس تبدو في توجيه بعض من ضاقت عليه حياته واستحالت إلى أن صارت غصة في حلقه إلى الرحيل لديار غيرها .

وَإِنْ فارَقْتَهَـــا وَخَرَجْـــتَ مِنْهَـــا إِلَـــى " دَارِ السَّـــلاَمِ " فَقَـــدْ سَـــلِمْتَا

وَإِنْ كَرَّمْتَهَـــا وَنَظَـــرْتَ منهَـــا بِـــــإجلالٍ فَنَفْسَـــكَ قَـــدْ أَهَنْتَـــا

---

[1] دلالات التراكيب- د/ محمد محمد أبوموسى ص١١٤ ط٤ مكتبة وهبة ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م

[2] ديوان المتلمس الضبعي-تحقيق/حسن كامل الصيرفي ص٨٨ ط١ القاهرة ١٣٩٠هـ ١٩٧٠م

[3] استعار النَفَاق وهو رواج السلعة وارتفاع فيمتها ، لارتفاع قيمة الإنسان بالسفر إلى مكان يبعد عن الذلة والهوان بجامع ارتفاع القيمة في كل ، وجرت الاستعارة في المصدر فهي تبعية .

بعدما أرشده الشاعر إلى السفر إلى بلاد أخرى إن ضاق عليه مكانه بدأ يوضح له النظرة العامة إلى الدنيا ، وهي إما نظرة احتقار وتصغير لا يبالي الناظر إليها بشأنها ، فيفعل لآخرته ولا يبالي بشأن دنياه ، فذاك إن فارقها إلى دار السلام فقد سلم منها ؛ حيث أحسن استغلالها فيما يجدي نفعا في آخرته ، وإما نظرة تكريم وتعلق يعيش لها فقط فيخرج منها ولم يدخر لآخرته شيئا وبهذا يكون قد خرج منها مهانا لم يحسن استغلالها فيما يعود عليه بالخير .
وفي هذا استخدم الشاعر الأفعال الماضية (فارقت – سلمت- كرمت- أهنت) ؛ ليحقق وقوع تلك الأفعال فالإنسان ما بين تعلق محقق بالدنيا ، أو تعلق محقق بثواب الآخرة ، لذا أدخل قد على الماضي (سلمت – أهنت) ؛ ليؤكد على ذلك التحقق فالفرد في الآخرة إما فائز أو خاسر .
وبين (السلام – سلمتا) جناس اشتقاق .
الأولى يعنى بها دار الآخرة ، والثانية يعني بها السلامة من العقاب ، وتبدو بلاغة الجناس في تلك العلاقة القيمة بين المعنين ، فدار السلام جزاء من سلمت دنياه من الخبث ، وبها يسلم من جهنم ، فسلامٌ في الدنيا جزاؤه السلام في الآخرة به يسلم من الحر الحرور .
وبين (كرمت – أهنت) طباق .
تبدو بلاغته ليس في مجرد بيان الفارق بين المعنين ، ولكن في بيان الفارق في المنسوب إليه المعنى ، فالتكريم منسوب للدنيا يترتب عليه إهانة منسوبة لمن كرمها ورفع قدرها ، وبهذا يربط اللفظان بين الفعل والجزاء ، وعلى الفاعل الاختيار إما تكريم دنياه وإهانة نفسه عند الحساب ، وإما تكريم آخرته ونيل الدرجات العلى .

جَمَعْتُ لَكَ النَّصَائِحَ فَامْتَثِلْهَا حَيَاتَكَ فَهْيَ أَفْضَلُ مَا امْتَثَلْتَا

استخدم الماضي (جمعت) ؛ ليوضح تحقق وقوع الفعل ، وهذا محقق بالفعل ، فقد جمع الشاعر في قصيدته نصائح شتى فيها الخير لمن امتثلها .
ولذا أتبع الماضي بالأمر قائلا :" فامتثلها " ، وهو أمر إرشادي يرجو الشاعر من المخاطب امتثال تلك النصائح التي جمعها له .
واستخدم أفعل التفضيل (أفضل) ، وأتبعه بالموصول (ما) ؛ للتفخيم من قيمة تلك النصائح ومن الخير العائد من وراء الالتزام بفعلها .
ولشعور الشاعر بأنه قد قسى على المخاطب بعض الشيء في بعض أبياته خاطبه قائلا :

وَطَوَّلْتُ الْعِتَابَ وَزِدْتُ فِيهِ لأَنَّكَ فِي الْبَطَالَةِ قَدْ أَطَلْتَا

مستخدما الماضي في (طولت – زدت) ؛ ليحقق من وقوع الأفعال ، فقد أطال الشاعر في العتاب وزاد في معانيه ، ولكنه أورد لذلك علة مناسبة بقوله :" لأنك في البطالة قد أطلتا " فأحسن التعليل ، وكشف عن الغرض المباشر لتلك النصائح ولذاك العتاب ، مقيدا الماضي (أطال) بـ(قد) ؛ ليحقق من وقوع الباطل من جهة المخاطب والذي استحق عليه التطويل في العتاب ، ثم يعتذر الشاعر عما ورد في أبياته من لهجة شديدة ربما استاء منها المخاطب قائلا:

فَلاَ تأخذ بتَقْصِيرِي وَسَهْوِي وَخُذْ بِوَصِيَّتِي لَكَ إِنْ رَشَدْتَا

وَقَدْ أَرْدَفْتُهَا سِتًّا حِسَاناً وَكَانَتْ قَبْلَ ذَا مِائَةً وَسِتَّا

والنهي للالتماس ، يلتمس الشاعر من المخاطب ألا يؤاخذه بقسوة حديثه معتبرا ذاك من التقصير والسهو ، وفي ذلك حسن أدب من الشاعر ؛ حيث رد على الهجاء بنصح وتوجيه ، حتى إنه ليعتذر عما ورد في نصحه من كلمات ربما لا توافق هوى المخاطب .
وقوله :" وخذ بوصيتي " أمر أريد به التماس القبول ، فالشاعر ومخاطبه ندان ، عاشا في زمن واحد ، وعاصر كلا منهما أفعال الآخر ، وفي الالتماس حسن تأدب في الطلب ، واستمالة للمخاطب ؛ رغبة في قبول الملتمَس .

وقوله :" وَقَدْ أَرْدَفْتُهَا سِتَّاحِسَانا وَكَانَتْ قَبْلَ ذَا مِائَةً وَسِتَّاً "

يشير فيه الشاعر إلى عدد أبيات القصيدة ، فقد كان عدد أبياتها مائة وستة بيتا ، ثم زاد عليها ستة أبيات ، فصارت مائة واثني عشر بيتا .

وفي تقييده الفعل (أردفت) بـ(قد) ؛ دلالة على تحقق الفعل والتأكيد عليه ، فقد كاد ينتهي الشاعر من قصيدته عند البيت السادس بعد المائة ، فرأى أن من الأفضل أن يزيد عليها ستا أخرى ، وبالفعل زادها فزادت من قيمة القصيدة حيث حملت أرق المعاني الموجهة من الشاعر للمخاطب .

وبين (لا تأخذ – خذ) طباق الإيجاب والسلب ؛ حيث ورد في القصيدة ما قد يرغب المخاطب في قبوله ، وما قد ينفر منه ، فلم يتعصب الشاعر لنصحه راغبا في قبوله كله بما فيه من عتاب ، ولكن بلطف ورقة يقول له : قد عرضت عليك نصائحي فما زانك منها فاقبل ، وما شانك من كلامي فاعتبره سهوا وتقصيرا مني ولا تؤاخذني عليه ، وبتلك الكلمات الرقيقة التي يعجز أمامها كل حاقد أو كاره أو واش يكاد يختم الشاعر قصيدته ؛ ليترك للمخاطب أرق كلمات تعبر عن صَفْحِهِ وعفوه عما سلف ، ورغبته في كتابة بداية جديدة يسعد بها الطرفان .

وقوله (ستا – ست) من رد العجز على الصدر ، وهو محسن بديعي يختم به الشاعر تلك القصيدة التي تحمل من النصائح والتوجيهات ما تُسعِد به كل مخاطب يسمعها ويلتزمها لا مخاطب مخصوص بعينه ، فهي سطور كتبها التاريخ كهدية من الشاعر لكل قارئ على مر الزمان .

****

المبحث التاسع
نظرة حول القصيدة .

قال الشاعر هذه القصيدة في ظروف خاصة ؛ حيث يتلاقى الغيظ والشفقة ؛ حيث الرغبة في الانتقام بالقول والخشية من قول ما يندم عليه أو يقلل من شأنه لدى خالقه جلَّ علاه ، فقد جاءت قصيدة الشاعر للرد على المدعو (أبي بكر) الذي هجاه ، وفنَّد سلبياته ، وهنا يخير الشاعر نفسيا بين رد الهجاء بالهجاء ، أو بالنصح والإرشاد ، فاختار الطريق الأقرب إلى الله ، وإلى خلود المعنى ، وبقاء العبرة والعظة ، اختار سبيل الإرشاد جامعا له النصائح مطالبا إياه بالامتثال ، والقصيدة في هذا تتميز ببعض السمات أوضحها فيما يلي:

أولا : الألفاظ والتراكيب

تتميز القصيدة بأسلوب سهل واضح مباشر ؛ ليتماشى مع الغرض الأسمى الذي تحمله القصيدة ، وهو الدعوة إلى الله ، وإلى إرشاد المجتمع ، إلى نصح كل مخاطب لا مخاطب بعينه ، فهي دعوة سلمية إلى إصلاح المجتمع الذي يرشد برشاد أفراده ؛ لذا أجد معظم ألفاظ القصيدة يسيرة لا تحتاج إلى بحث وتنقيب لفهم معناها ، فقد واءمت القصيدة بين سهولة اللفظ ووضوح المعنى ؛ لتصل إلى سرعة الإدراك ، ومع هذا لا نعدم لفظا جزلا قويا في بعض المواضع ، كتعبيره بـ(الأكياس في العقلاء ، والفيء في الظل ، وحميا أم دفر للدنيا ، والسبنتى للنمور) وغيرها مما يدل على تمرس الشاعر وعلى أن سهولة لفظه ليست عن عجز ، ولكن عن رغبة في سرعة قبول اللفظ ؛ ليترتب عليه سرعة في إدراك المعنى وقبول ما يحمله من دلالة .

وبين اللفظ والمعنى أجد القصيدة تتجه اتجاها مستقيما لا اعوجاج فيه ، يسلمنا كل جزء فيها إلى ما يليه بيسر في بناء واحد ، فتميزت القصيدة بالوحدة العضوية التي عُرِّفت بكونها "تامة الخلق والتكوين ... عمل تام ينقسم إلى وحدات تسمى أبيات ، ولكن كل بيت خاضع لما قبله لا تحجزه عنه خنادق ولا ممرات ، فهو خيط من النسيج يدخل في تكوينه ويساعد على تشكيله[1] " ، وهذا بالفعل ما أراه في القصيدة ، حيث وجدته يبدأها بذكر الموت (تفت فؤادك الأيام فتا) ، مبينا الغفلة عن الآخرة (فكم ذا أنت مخدوع) ، ومنتقلا من الغفلة عن الآخرة لبيان غفلة المخاطب ، ووجوب مدارسة العلم للإفاقة من تلك الغفلة (أبا بكر دعوتك إلى علم) ثم إذا حصل عنده العلم وجب عليه العمل به ؛ لأنه سيسأل عنه (وإن أوتيت فيه طويل باع .... فلا تأمن سؤال الله عنه) فإن لم يعمل به فالجهل أولى (إذا لم يفدك العلم خيرا فخير منه أن لو قد جهلتا) ، وإذا حدث هذا فسوف يسبقه أصحابه ويعلون منزلة عنه (إذا أبصرت صحبك في سماء) ولن يصير له معنى بين الناس بالجهل ولو ملك الدنيا بأسرها ، فالدنيا لا تساوي شيئا بدون علم وتقوى (فليست هذه الدنيا بشيء ...) لذا وجب عليه تركها والاهتمام بأمر الآخرة فلا يطيل الرجاء في الدنيا أملا في الصبا (ولا تقل الصبا فيه مجال) ، ولكن ليقل شيئا آخر وليعترف به وهو أنه أخطأ في حق نفسه وفي حق الشاعر فأضحى أولى بالنصح (قل يا نصيح لأنت أولى بنصحك) ، فإذا أدرك من النظر أنه أخطأ فهو (أحق بالتفنيد) وليبك ذنبه وليعظم الندامة (لأعظمت الندامة) ، وإذا أعظم الندامة على ذنوبه علم أنه كشف من عيوب الشاعر القليل بالمقارنة بنفسه (أبا بكر كشفت أقل عيبي) ، ولسماحة الشاعر وعفوه لن يقابله بالجزاء (فقل ما شئت في) ، ولكن سيقابله بالإحسان ذاكرا أفضل ما فيه من صفات (وأنت لم تعرف بعاب ولا دنست ثوبك ...) ، وفضلا عن ذلك سيقابله بالنصح السديد (ولا تلبث بحي فيه ضيم ... وغرِّب .. ، وشرِّق ...) ثم يختمها بإخباره أنه قد جمع له النصائح ، فليقبل ما يستسيغه ، وليعذره فيما أثقل عليه منها (جمعت لك النصائح فامتثلها ... فلا تأخذ بتقصيري وسهوي وخذ بوصيتي لك إن رشدتا).

فتلك وحدة عضوية بناء واحد متكامل تتراص لبناته تشد من أزر بعضها تسلمك كل لبنة إلى ما يليها في تسلسل دون انقطاع ، حتى كأنها جسد واحد لا علة فيه ولا خلل .

ثانيا : الخيال وزينة اللفظ .

مع سلاسة الألفاظ ، وسهولة التراكيب ، وجودة النظم ، أجد بعض الصور البيانية التي تنقل السامع من حيز التلقين البحت إلى عالم أوسع تجد فيه الصورة تحلق بالمعنى إلى سماء عالية يراها البصر ، وتسمع

---

[1] في النقد العربي / شوقي ضيف ص١٥٣ ط١ دار المعارف ١٩٦٦م

دبيبها الأذن ، فتنفذ إلى الإدراك من أوسع أبوابه ، ولتنظر إلى قوله:" تفت فؤادك الأيام فتا وتنحـــت جسمك الساعات نحتا " ، وكيف جعل من ضعف جسده فتا ونحتا ؛ ليبالغ في بيان الضعف المتكرر المتلاحق الذي دب في جسده ولا يزال إلى أن تخرج الروح إلى عالم آخر .
وانظر إليه كيف صوَّر الدنيا في صورة العروس ذات الغدر والخيانة ؛ ليضع أمام النفس المشتهية أحد خيارين: إما أن ترضى ببهجتها وزينتها وتغمض عينك عن غدرها فتسوق المتغاضي إلى مصير حتمي السواد ، أو تتغاضى عن زينتها وشهوتها الجاذبة آخذا الحذر من غدرها فتسلم من استدراكها .
وانظر إليه كيف حلَّق بخياله إلى أعلى سماء فالتقط منها النجوم ، ثم هبط بها إلى الأرض ؛ ليجعلها نعلا للصالحين الطائعين تضيء طريقهم في قوله :" تنعلك الدراري " .
إن الخيال على قلته في القصيدة ليفسح المجال للعقول إلى ساحة من التذوق ،هذا إلى جانب تلك المحسنات البديعية التي تلعب دورا هاما ليس فقط في الزينة الخارجية للفظ ، ولكنها تلعب دورا أساسيا في المعنى ، فالطباق والمقابلة لعبا دورا رئيسيا في المقارنة بين العلم والمال ، وبين حال الشاعر وحال المخاطب ، هذا إلى جانب الاقتباس من القرآن والسنة النبوية الذي منح القصيدة مرجعية سليمة لا مراجعة فيها ، فجعلتها أدعى للقبول والعمل بها .

ثالثا : موسيقى الشعر

" حين نمعن النظر في بنية القصيدة العربية نجد أن البناء الموسيقي يعد في مقدمة البُنى التي تتكون منها القصيدة عند العرب ، ويرى النقاد أن البناء الموسيقي يتقدم على البناء بالصورة ؛ أن القصيدة إذا فقدت العنصر النغمي (الوزن الشعري) تخرج من دائرة الشعر إلى دائرة الفن النثري[1] " ، وبهذا يكون الوزن الشعري من البحر والقافية هو القالب الموسيقي الذي يفرغ فيه الشاعر إبداعه ، فاختار لها من البحور (الوافر) ، ومن القوافي قافية التاء المطلقة[2]، والتاء صوت انفجاري ؛ حيث يحدث معه " انحباس الهواء لا يسمح بمروره حتى ينفصل العضوان فجأة ويحدث النفس صوتا انفجاريا [3]" ، وتلك الصفة تتناسب مع مقدمة تلك القصيدة التي يستحضر صاحبها الموت وأسباب قربه ودواعيه التي تنهش جسده ، فتقرب المنية منه شيئا فشيئا قائلا :" تفت فؤادك الأيام فتا " فحرف التاء الانفجاري يحوي دفعة قوية تتناسب مع تلك الدفعات المتتالية المتلاحقة من النحت والفت وبري الجسد ، ثم بجعل القافية مطلقة بمدها بحرف الألف ، وهو من أيسر حروف اللين ، وبتكرار المد في القافية المطلقة (فتا – نحتا – أنتا – عقلتا- ضللتا – أمرتا) يعد حرف المد كتنفس الصعداء يبث خلاله الشاعر تلك المعاني المنبعثة من قلب مكسور تعرض للذم والهجاء ، ومع ذلك ليس أمامه سوى الصفح والعفو وبث النصائح والإرشاد ، فيخرج حرف المد بتلك الآهات التي يحملها الشاعر محملة بالنصح ترجو القبول فيمتد بها الصوت ؛ ليطيل مدة سماعه فتتمكن في الذهن فلا يغفل عنها المخاطب .
ثم إذا تركت الوزن والقافية إلى البنية الداخلية للقصيدة أجدها تعج بالنغم الموسيقي ، فإيقاع القصيدة نغم يكاد يتمايل مع كلمات الشاعر ، فالإيقاع " وهو التناغم الذي يقيمه الفنان بينه وبين المخاطب عن طريق الموضوع هو الموسيقى المنبعثة من داخل الصياغة ، وهو ليس نغمات مكررة فقط بل هي تصوير لجو المعنى ؛ طلبا للتواصل المستمر بين المتكلم والمخاطب[4] "، فالإيقاع الداخلي يسير جنبا إلى جانب الوزن والقافية ؛ يتكاملان في إخراج قطعة فنية تستلذ الآذان لسماعها ، فتكرار المشتقات عن طريق جناس الاشتقاق أو المفعول المطلق في (تفت فتا – تنحت نحتا – تدعوك دعاء - حتى وحتى – تطهر ما طهرتا – أسير وقد أسرتا ...) يجعل الكلمات عالقة بالسمع ، تنفذ إلى الذهن ، تثير الإعجاب ، فيرغب السامع في تكرارها حيث ؛" إن القيم الصوتية لجرس الحروف أو الكلمات عند التكرار لا تفارق القيمة الفكرية والشعورية المعبر عنها ، ومثير هذا التطريب لتكرير الحرف أو الكلمة هو حب امتلاك الكلام بإيقاعه قلب السامع[5] "

---

[1] جماليات موسيقى الشعر العربي د/ علي مطاوع ١٠٦ ط١ مطبعة مؤمن ٢٠٠٧م
[2] المطلق من القوافي: "ما تبع حرف رويه وصل ... ، والوصل أحد أربعة أحرف : الياء والواو والألف والهاء "/ العمدة لابن رشيق القيرواني م١٣٢/١/١
[3] جماليات موسيقى الشعر ص١١٧
[4] البديع تأصيل وتجديد -د/منير سلطان ص٢٣ ط١ مركز الدلتا للطباعة ١٩٨٦م
[5] التكرير بين المثير والتأثير ص٨٦

أضف إلى ذلك الجناس وما له من تأثير في النغم الداخلي للقصيدة ؛ حيث ينشر جوا من التناغم والانسجام بين الكلمات يجعل لها رنينا ورونقا خاصا يزيد من تناغم موسيقى القصيدة ، ويجعل لها ذوقا متميزا ترق الأذن لسماعه .

****

* الخاتمة *

الحمد لله على تمام نعمته عليَّ وعلى كل المسلمين بنعمة التوحيد وبعد ، كانت تلك قصيدة الإلبيري عشت مع بلاغتها ، وتوصلت من تحليلها إلى الآتي :

- أجاد الشاعر في استهلال قصيدته ؛ حيث جمع البيت الأول بين التكرار المستفاد من التعبير بالمضارع ، والتأكيد بالمفعول المطلق ، واشتمل على استعارتين ، ومن البديع حوى التصريع والترديد ومراعاة النظير فكان بحق خير افتتاح وأبرع استهلال .

- أكثر الشاعر من الأفعال المضارعة في قصيدته كثرة يبغي من ورائها أن تظل معاني القصيدة حية متكررة لا تخص مخاطبا بعينه بقدر ما تتكرر فتوجه وترشد كل قارئ وكل سامع .

- معظم الأفعال الماضية في القصيدة أتت مؤكدة بـ(قد) ؛ ليؤكد الشاعر على صدق حديثه ، ومصداقية نصحه فيحمل المخاطب على القبول .

- يحتل الأمر والنهي الصدارة من الأساليب الإنشائية التي استخدمها الشاعر في قصيدته ؛ وذلك لأن غرضها النصح ، فجاء مبناها على غرار (افعل ولا تفعل) .

- يحوز الطباق قصب السبق من بين المحسنات البديعية ، ويلعب الدور الرئيسي في المقارنة بين المعاني .

- تتناغم كلمات القصيدة في إيقاع داخلي عن طريق الجناس والتكرار بلطف ساقه المعنى فأصاب الهدف .

- تميزت ألفاظ الشاعر في قصيدته بالسهولة ، ومعانيه بالوضوح ، فلا أجد فيها لفظا مقعرا ، ولا معنى غريبا يصعب إدراكه .

- أحسن الشاعر التخلص من المعاني باتساق وتناغم حتى لا أشعر في القصيدة بالانقطاع ، بل أجدها كحبات متراصة نظمت في سلك واحد متناسق الهيئة .

****

المصادر والمراجع

١ أساليب النفي في القرآن د/ أحمد ماهر البقري ط١ المكتب العربي الحديث ١٩٨٩م
٢ أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني – تعليق محمود محمد شاكر ط١دار المدني بجدة ١٤١٢هـ ١٩٩١م
٣ إسفار الصباح عن ضوء المصباح لابن النحوية – تحقيق د/ إبراهيم بن عبد العزيز الزيد ط١ دار كنوز إشبيليا بالسعودية – الرياض ١٤٣٣هـ ٢٠١٢م.
٤ الإيضاح للخطيب القزويني – شرح عبد المنعم خفاجي ط٣دار الجيل بيروت د.ت
٥ البديع تأصيل وتجديد -د/منير سلطان ط١ مركز الدلتا للطباعة ١٩٨٦م
٦ البديع في ضوء أساليب القرآن د/ عبد الفتاح لاشين ط١ دار الفكر العربي ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م
٧ بغية الإيضاح / عبد المتعال الصعيدي ط١٧ مكتبة الآداب ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م
٨ بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس للضبي – تحقيق إبراهيم الإبياري ط١ دار الكتاب المصري ١٤١٠هـ ١٩٨٩م
٩ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذارى المراكشي ط٣ دار الثقافة بيروت ١٩٨٣م
١٠ التبيان في البيان للإمام الطيبي – تحقيق د/ عبد الستار حسين زموط - ط١ دار الجيل –بيروت ١٤١٦هـ ١٩٩٦م
١١ ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة مذهب الإمام مالك للقاضي عياض – ضبطه / محمد سالم هاشم ط١ دار الكتب العلمية-بيروت ١٤١٨هـ ١٩٩٨م
١٢ التكرير بين المثير والتأثير د/ عز الدين علي السيد ط١ دار الطباعة المحمدية ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م
١٣ تلخيص المفتاح للخطيب القزويني ط١ دار إحياء التراث العربي ١٤٢٥هـ ٢٠٠٤م
١٤ جماليات موسيقى الشعر العربي د/ علي مطاوع ط١ مطبعة مؤمن ٢٠٠٧م
١٥ جمهرة أنساب العرب لابن حزم الأندلسي – تحقيق/ عبد السلام هارون ط١ دار المعارف بمصر ١٣٨٢هـ ١٩٦٢م
١٦ خصائص التراكيب د/ محمد محمد أبو موسى ط٧ مكتبة وهبة ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م
١٧ دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني – تعليق / محمود محمد شاكر ط٣مطبعة المدني بجدة ١٤١٣هـ ١٩٩٢م
١٨ دلالات التراكيب- د/ محمد محمد أبوموسى ط٤ مكتبة وهبة ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م
١٩ ديوان أبي إسحاق الإلبيري – تحقيق/ محمد رضوان الداية ط١ دار الفكر المعاصر –بيروت ١٤١١هـ ١٩٩١م
٢٠ ديوان المتلمس الضبعي-تحقيق/حسن كامل الصيرفي ط١ القاهرة ١٣٩٠هـ ١٩٧٠م
٢١ رشف النبيه من ثغر التشبيه للشيخ ابن أبي عصرون الكنجي –دراسة د/ فريد محمد بدوي النكلاوي ط١ ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م
٢٢ شرح ابن عقيل للقاضي بهاء الدين بن عقيل ط٢٠ دار التراث ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م
٢٣ صحيح سنن ابن ماجة /محمد ناصر الدين الألباني ط١ مكتبة المعارف– الرياض ١٤١٧هـ١٩٩٧م
٢٤ صحيح مسلم للإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري – تحقيق /محمد فؤاد عبد الباقي ط٣دار إحياء التراث العربي –بيروت د.ت
٢٥ الصناعتين لأبي هلال العسكري – تحقيق : علي محمد البجاوي –محمد أبو الفضل إبراهيم ط١ المكتبة العصرية بصيدا – بيروت ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م
٢٦ الطراز للعلوي – راجعه / محمد عبد السلام شاهين ط١ دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان ١٤١٥هـ ١٩٩٥م
٢٧ عروس الأفراح لبهاء الدين السبكي تحقيق / عبد الحميد هنداوي ط١ المكتبة

العصرية – صيدا بيروت ١٤٢٣هـ ٢٠٠٣م
٢٨ العمدة لابن الرشيق القيرواني-تحقيق/محمد محي الدين ط١دار الطلائع ٢٠٠٦م
٢٩ فتح الرزاق بشرح تائية أبي إسحاق –شرح د/ أمير شيشي ط١ بمدينة بربينيان الفرنسية ١٤٣٤هـ ٢٠١٣م
٣٠ فقه اللغة وخصائص العربية –د/ محمد المبارك ط١ دار الفكر١٩٦٨م
٣١ فن الجناس علي الجندي ط١ دار الفكر العربي ١٩٥٤م
٣٢ في النقد العربي / شوقي ضيف ط١ دار المعارف ١٩٦٦م
٣٣ قطوف من البيان والأدب .د- فريد محمد بدوي النكلاوي ط١ عالم الغد ١٤١٨هـ ١٩٩٧م
٣٤ كفاية المُعاني في حروف المعاني للشيخ عبد الله الكُردي البيتوشي – شرح وتحقيق / شفيع برهاني ط١ دار اقرأ للطباعة والنشر ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م
٣٥ لسان العرب لابن منظور ط١ دار المعارف ١٩٨١م.
٣٦ المثل السائر في أدب الشاعر والكاتب لابن الأثير – تحقيق/ أحمد الحوفي – بدوي طبانة ط١ دار نهضة مصر د.ت
٣٧ مدخل إلى علم الأسلوب د/ شكري عياد ط٤نشر أصدقاء الكتاب ١٩٨٨م
٣٨ المطول للعلامة سعد الدين التفتازاني شرح وتعليق /أحمد عزو عناية ط١ دار إحياء التراث العربي / بيروت ـ لبنان ١٤٢٥ هـ ٢٠٠٤م
٣٩ معاني الحروف للرماني – تحقيق:د/ عبد الفتاح شلبي ط١ القاهرة ١٩٧٣م
٤٠ المغرب في حلى المغرب لابن سعيد المغربي – تحقيق/ د. شوقي ضيف ط٤ دار المعارف ١٩٥٥م
٤١ من أسرار التعبير بالحروف المشبهة بالفعل (إن وأخواتها) د/هاشم محمد هاشم ط١ القاهرة ١٩٩٤م
٤٢ من أسرار التعبير في القرآن (حروف القرآن) د/ عبد الفتاح لاشين ط١ مكتبة عكاظ – السعودية ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م
٤٣ من أسرار اللغة للدكتور إبراهيم أنيس ط١ لجنة البيان العربي ١٩٥١م
٤٤ مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي– تحقيق/ عبد الحميد هنداوي ط١ المكتبة العصرية ببيروت ١٤٢٦هـ ٢٠٠٦م
٤٥ موسوعة شعراء الأندلس / عبد الحكيم الوائلي ط١ دار أسامة للنشر والتوزيع – عمان د.ت
٤٦ نقد الشعر لقدامة بن جعفر –تحقيق /محمد عبد المنعم خفاجي ط١مكتبة الكليات الأزهرية ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م

****